أهل البيت

فاطمة الزهراء

obeikandl.com

obeikandl.com

الناشر: دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج.م.ع.
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

أهل البيت

فاطمة الزهراء

للأستاذ

توفيق أبو علم

رئيس مجلس إدارة مسجد السيدة نفيسة
ووكيل أول وزارة العدل سابقاً

الطبعة الثامنة

دار المعارف

obeikandl.com

obeikandl.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً

(سورة الأحزاب)

قُل لَّا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى

(سورة الشورى)

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين — وبعد لقد امتلأت نفسى ارتياحاً حين نبثت من دار المعارف بعزمها على طبع كتاب « فاطمة الزهراء » طبعة ثانية ، وفى الحقيقة هى الثالثة ، لأنه لما أراد الله سبحانه وتعالى لى التوفيق وأصدرت كتاب أهل البيت ، وجمعت فيه شخصيات أهل البيت : وفاطمة الزهراء ، وعلى بن أبى طالب ، والحسن بن على ، والحسين بن على ، ثم السيدة نفيسة ، ونفد الكتاب بسرعة وأصدرنا الكتاب فى أجزاء ، وابتدأت بالسيدة فاطمة الزهراء ونفد الكتاب ، وكان من أسباب نفاده أن الشباب المعاصر كما قال لى الكثيرون ليس فى وسعه الحصول على كتب مبسطة تنطق بلغة العصر ، وتعرض حياة أهل البيت لأن أكثر أئمة أهل البيت مازالت حياتهم مبعثرة فى كتب السيرة القديمة بترتيب لا يستسيغه شاب اليوم ، لذلك كان واجباً على ذوى الإحاطة بسيرة أهل البيت أن يقوموا بمهمة التأليف بأسلوب عصرى عن هذه السيرة الجليلة ، سيرة أهل البيت الذين طهرهم الله عقلاً ومنطقاً وسلوكاً من كل آثار الجاهلية ، ويقول الله سبحانه وتعالى (إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) . وحين يكون أهل البيت قد احتلوا هـــذا المقام السامى فى

الشرع الإسلامى المقدس ، فقد انطلق الرسول صلى الله عليه وسلم لتبيان هذه الحقيقة حين قال : « إنى خلّفت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى : كتاب الله وعترتى أهل بيتى ، فانظروا كيف تخلفونى فيهما » .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن السيدة فاطمة : « إن الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها ، فاطمة قلبى وروحى التى بين جنبى » .

هذه الشهادة وأمثالها تواترت فى كتب الحديث والسيرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن الهوى ولا يتأثر بنسب أو سبب ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، هذه أوسمة من خاتم الرسل على صدر فاطمة الزهراء تزداد تألقاً كلما مر الزمان وكلما تطورت المجتمعات وكلما لاحظنا المبدأ الأساسى فى الإسلام وفى كلامه لها : « يا فاطمة اعملى لنفسك فإني لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

وإني أنحنى إجلالاً بين يديك سيدتي – يا بضعة النبي
وطأطأة للرأس تجاه مقامك الشامخ يا أم الحسنين
أى قلم يرقى ليكتب عنك
وأى ريشة تدق حتى تستطيع أن تصورك كما أنت
قالوا عنك : إنك وتر فى غمد
وقالوا : إنك نداء الملايين
وقالوا : إنك شهاب النبوة الثاقب
وقالوا : إنك أنثى فى القمة
أنت يا سيدتى الجليلة بنت النبوة البكر
أنت ربيبة الوحى

أنت أم أبيك
أنت أم للرسول فى رسالته لا فى ولادته
أنت يا سيدتى زعيمة أهل البيت .

ويقول الشاعر :

هم النور نور الله جل جلاله هم التين والزيتون والشفع والوتر

وأحمد الله سبحانه وتعالى أن منّ علىّ بحب رسوله الأمين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وحب آل بيته الطيبين الطاهرين رضى الله عنهم أجمعين ، فهم شجرة النبوة ومحط الرسالة ومختلف الملائكة ومنبع الرحمة ومعدن العلم وينابيع الحكمة ، فهم كرائم القرآن وهم كنوز الرحمن ، إن نطقوا صدقوا وإن صمتوا لم يسبقوا ، ناصرهم ومحبهم ينتظر رحمة الله ونفحاته ، وعدوهم ومبغضهم يستقبل نقمة الله وسطوته ، بهم هدايتنا من الظلماء وبهديهم تتنسم مراقى العلياء ، وهم موضع سر المصطفى صلى الله عليه وسلم .

لقد بلغ من حب الرسول صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة أنه كان يكنيها بـ (أم أبيها) ، إنه اليتم يجعل من الطفل يحن إلى أنثى تحنو عليه بدل أمه ، فقد توفيت (آمنة بنت وهب) أم النبى صلى الله عليه وسلم وهو طفل صغير ، فتعلق قلبه حينذاك بفاطمة بنت أسد أم على عليه السلام ، لقد كان يناديها : يا أماه .

وعندما توفيت حزن عليها حزناً شديداً وسمع يقول : « ماتت أمى » .

ورزق صلى الله عليه وسلم فاطمة ، وكلما رآها ذكر فاطمة بنت أسد وتسلى بابنته عنها ، وقد كناها بـ (أم أبيها) ، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم بالذى تدفعه العاطفة إلى إضفاء سمات على أشخاص ليسوا جديرين بها

أو مدح أفراد بعبارات تكون أقرب إلى الخيال من الواقع – إنه الرسول الصـ ـق الأمين ، وكفى فيه فخراً قوله عز من قائل : (وإنَّك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم) .

أحب الزهراء أيما حب وكانت جديرة بهذا الحب – قال عنها :

فاطمة بضعة منى فمن أغضبها فقد أغضبنى .

وقال أيضاً : فاطمة بضعة منى يؤذينى من آذاها ويسرنى ما سرها .

وفى رواية أخرى : « إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى من آذاها وينصبنى من أنصبها »[١] . وحق لها أن تنفرد بهذا اللقب ، فهى بضعة النبى حقاً ، أشبهته خُلقاً ومنطقاً – وواكبت رسالته منذ البدء فوعت من ذلك كثيراً .

ثم استمرت تسند الامتداد الطبيعى للرسالة فى ظل الإمامة ، تسنده بكل ما أوتيت من حول وطول .

وحق لها أن تكون سيدة نساء العالمين ، والبتول العذراء ، والطاهرة الزكية .

ومما لاشك فيه أن السيدة فاطمة الزهراء حاولت أن تشارك أباها ، فتسعى مخلصة لسد الفراغ العاطفى الذى كان يعيشه الرسول بعد أن فقد أبويه فى أول حياته ، وفقد زوجه الكريمة أم المؤمنين السيدة خديجة ، وهذا الفراغ كان يزعج النبى صلى الله عليه وسلم وينعكس على قلبه الرهيف المشتاق إلى الحب ، لقد كان بحاجة إلى عطف الأم ورعايتها فى حياته وفى عمله الشاق المضنى وفى مواجهته بيئته القاسية بالنسبة إليه ، وقد وجد كل هذا العطف فى فاطمة .

إن التاريخ لا يحدثنا إلا نتفاً من هذه المواقف الأمومية التى كانت تصدر عن السيدة فاطمة الزهراء بالنسبة للرسول ، ولكنه يؤكد نجاحها فى هذه

---

(١) الصواعق ص ١٦٨

المحاولة التى أعادت إلى محمد الاكتفاء العاطفى الذى ساعده فى تحمل أعباء الرسالة .

إن التاريخ يؤكد هذا حينما ينقل – تكراراً – عن لسان النبى صلى الله عليه وسلم : « فاطمة أم أبيها » وحينما نرى أنه كان يعاملها معاملة الأم فيقبل يدها ويخصها بالزيارة عند كل عودة منه إلى المدينة ، ويودعها منطلقاً من عندها إلى كل أسفاره ورحلاته . وكأنه يتزود من هذا النبع الصافى عاطفة لسفره[1] .

إن فاطمة الزهراء هى أجل من أن تشير إليها الأسانيد، وأكرم من أن تدل عليها السرود ، يكفيها إطاراً كونها ابنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وزوجة على وأم الحسن والحسين وسيدة نساء العالمين .

يقول العلامة سليمان كتانى :

إيه فاطمة

يا ثغراً تحلى بالعفاف فطاب رضابه

ويا عنقاً تجمل بالمكرمات فذكا إهابه

لقد عتق خط وصلك ببنت عمران يا ابنه المصطفى .

فتلك مريم – ما فرشت الأرض إلا من نتف الزنابق وأنت النفحة الزهراء ما نفثت الطيب إلا من سلسبيل الكوثر .

والخط خط الطهر والعفاف ما زنر الأرض إلا خفف إرهاقها ولا عانق الأجيال إلا لون آفاقها .

والأرض لولا هذا الأثير يغمرها – تأجن

(١) الأستاذ العلامه موسى الصدر

والزمن - لولا هذا العبير يرشفه – يأسن
يا بتول - يا أم أبيك
لقد كانت النبوة طفلك البكر
يا أم ريحانتين جسدا أشواق النبوة
يا لبنة القبع
يا كبرياء النفس فى عنفوان الجفر . . .

أية دمعة ليس لها أن تحرق مقلتيك وأنت فوق ضريح ثوى فيه مخمل الكف وحنوة القلب ورنوة العين وهلة الجبين ودفقة المسم . . . . وهالة كالديمة موصولة العبق بغار حراء ومسحة كالنور فيها كل العزاء .

وذاب حبر الوصية يا أنوق . . . . .
وبقيت على الخط الكريم يا عديلة مريم
يا قيثارة النبى
يا نورة اللحد
ويا وتراً فى غمد

لعل خير ما أستهل به هذه المقدمة هذه الكلمات المشرقة على لسان السيدة الجليلة فاطمة الزهراء - رضى الله عنها :

« فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك ، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر ، والزكاة تزكية للنفس ونماء فى الرزق ، والصيام تثبيتاً للإخلاص ، والحج تشييداً للدين ، والعدل تنسيقاً للقلوب ، وطاعتنا نظاماً للملة ، وإمامتنا أماناً من الفرقة ، والجهاد عزاً للإسلام وذلاً لأهل الكفر والنفاق ، والصبر معونة على استيجاب الأجر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

مصلحة للعامة ، وبر الوالدين وقاية من السخط ، وصلة الأرحام منسأة فى العمر ومنماة فى العدد ، والقصاص حقناً للدماء ، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة ، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخسة ، والنهى عن الخمر تنزيهاً عن الرجس ، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة ، وترك السرقة إيجاباً للعفة .

وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية . فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه فإنما يخشى الله من عبادة العلماء . . . . » .

وأخيراً وليس آخراً

أسأل الله عز وجل أن ينفعنا بمودتها وأن يكتب لنا شفاعة أبيها صلى الله عليه وسلم وشفاعتها وشفاعة ذريتها رضى الله عنهم أجمعين .

وما توفيق إلا بالله عليه توكلت والحمد لله رب العالمين

توفيق أبو علم

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، النبي الأمي العربي ، سيدنا ومولانا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وبعد ؛ فعندما وفقني الله سبحانه وتعالى وأصدرت كتابي « أهل البيت » لم أكن أتوقع أن ينفد الكتاب بهذه السرعة . ولقيت من القارئ الكريم كل تشجيع ، وتلقيت رسائل كثيرة من قراء لا أعرفهم أمطروني بعبارات لا أستحقها . وفي مقدمة هذه الرسائل رسالة كريمة من السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية ، وأخرى من العالم الكبير محمد صادق الصدر ، رأيت أن أضمنها هذه الطبعة الجديدة من الجزء الأول من سلسلة أهل البيت .

وكما قلت في مقدمة الطبعة الأولى ، إن مادة كتاب « أهل البيت » تاريخية ، أخذت من مصادرها الأولى ، وإنه ليس لي من فضل سوى أمانة النقل وجهد البحث . وهأنذا أكررها مرة ثانية إحقاقاً للحق . والفضل في صدور هذا الكتاب لله سبحانه وتعالى وللمرحوم والدي الذي فتحت عيني على الدنيا فوجدته يحثني على محبة أهل البيت .

وكان لابد لي من التفكير في إعادة طبع الكتاب مرة ثانية ، واستخرت

الله ، وعرضت هذه الفكرة على أخي الكبير الدكتور السيد أبوالنجا المشرف العام على دار المعارف ، واتفقنا على أن يصدر الكتاب فى أجزاء ، مبتدئاً بالسيدة فاطمة ، لأنها أولا هى فاطمة الزهراء المصدر الأول من مصادر القوة التاريخية التى تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير ، يكفيها إطراء كونها كريمة الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ، وزوج الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وأم الحسن والحسين ، وهى بحق قيثارة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد قالوا عن الزهراء بحق إنها نداء الملايين ، وإنها شهاب النبوة ، وإنها أنثى فى القمة . وكل هذا مرآة تعكس جزءا ضئيلا مما هى عليه ، أليست بنت النُّوة ؟ أليست ربيبة الوحى ؟ نحن جميعاً ننحنى ونلتمس عن لسان الرسول العظيم ، صلى الله عليه وسلم ، سمة منحها إياها وقلادة قلدها بها ، فنراه يناديها « بأم أبيها » إذن فأنت ياسيدتنا الجليلة « أم أبيك » . وهى التى قال فيها الرسول صلى الله عليه وسلم : « يافاطمة ، إن الله عزوجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك » . فإن الزهراء أجلّ من أن تشير إليها الأسانيد ، وأكرم من أن تدلّ عليها السرود .

وسيرى القارئ الكريم أني أعدت كتابة هذه السيرة العطرة ، فأضفت كثيراً مما يتفق مع جلال هذه السيرة ، وحتى أستطيع أن أشبع القارئ الكريم بفضل أهل البيت الذين قال فيهم الله سبحانه وتعالى : (إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) .

وأهل البيت هم شجرة النبوة ، ومحط الرسالة ، ومنبع الرحمة ،

ومعدن العلم ، وينابيع الحكمة ، وكنوز الرحمن . ناصرهم ومحبهم ينتظر رحمة الله ونفحاته ، وعدوهم ومبغضهم يستقبل نقمة الله وسطوته ، بهم هدايتنا من الظلماء ، وهم موضع سر المصطفى ، صلى الله عليه وسلم .

وعن الصدّيق رضى الله عنه أنه قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خيّم خيمة وهو يتكئ على قوس عربية ، وفى الخيمة على وفاطمة والحسن والحسين ، فقال : « معشر المسلمين ، أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، ولىّ لمن والاهم ، لايحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم إلا شقى الجد ردىء الولادة » .

ثم أتبع هذا الجزء ، إن شاء الله ، بأجزاء مستقلة عن الإمام على رضى الله عنه ، ثم الإمام الحسن ، ثم الإمام الحسين ، ثم بعد ذلك السيدة نفيسة ، رضى الله عنهم ، ثم أزيد على الطبعة الأولى جزءًا خاصًا لكل من السيدة زينب رضى الله عنها – وذلك استجابة لما طلبه منى القراء الكرام – ثم سيدى على زين العابدين نجل أبى الشهداء الإمام الحسين رضى الله عنه .

والله أسأل أن يوفقنى حتى أتمكن من إخراج هذا الكتاب المبارك على أجزاء مستقلة فى مواعيدها ، كما أسأله سبحانه وتعالى بجاه نبيه المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، أن ينفعنا ببركة سادتنا أهل البيت ، وأن يجعلنا من محبيهم ، فتكون محبتنا صلة ود صميم بجدهم العظيم ، ووسيلة لشفاعته العظمى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

obeikandl.com

نسأل الله سبحانه وتعالى الهداية والتوفيق ، وما توفيق إلا بالله العلي القدير .

توفيق أبوعلم

١ من رجب ١٣٩٢
١٠ من أغسطس ١٩٧٢

obeikandl.com

أهل البيت

رسالة من العالم الكبير محمد صادق نصدر

سيادة الأستاذ توفيق أبوعلم ، أعزه الله ورعاه .

السلام عليكم ، وعلى من ضمه مجلسكم العامر المتشرف بالانتساب للسيدة « النفيسة » الجليلة ، ورحمة الله وبركاته .

يسرنى – وأنا سليل « العترة الطاهرة » – أن أقرأك فى كتابك القيم « أهل البيت » ، وكلى غبطة بما وهبك الله من فضله ، وهداك إلى سبيله .

وأشهد أنك من أولئك الناس الطيبين الذين عناهم الإمام زين العابدين فى قوله حيث يصف « الأهل » سلام الله عليهم فيقول : « علمهم علم ما كان وعلم مايكون ، وجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » ، فهويت – رعاك الله – إليهم بفؤادك ، وبذلت فى الدفاع عنهم قصارى جهدك فى كتابك . وقد برهنت فى كل ماحررت على أنك المصداق لقول الرسول ، صلى الله عليه وآله : « سعيد الجدطيب المولد » ، فلك البشرى بهذه السعادة ، ولك الفوز بطيب الولادة ، ووفقك الله لأن تكون فى البقية الباقية من حياتك المديدة النافعة إن شاء الله سلماً لمن سالم أهل البيت ، وحرباً لمن حاربهم . وليهنك هذا القرب إليهم بالتوفيق لخدمتهم ، وذلك بالانتساب إلى حرم السيدة الجليلة الطاهرة والنفيسة ، رضوان الله عليها ، وسلامه على أجدادها الطيبين المعصومين .

obeikandl.com

ورجائى ألا تنساني من صالح أدعيتك فى مشهدها المكرم – وهو من بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه .

وكم وجدت السعادة النفسية فى هذه السياحة الفكرية الممتعة التى قضيتها فى أثرك النافع « أهل البيت » .

وإني إذ أقرؤك فى فصوله وأبوابه فإنما أقرأ آيات المودة والولاء لذوى القربى الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم من الدنس ، وجعلهم أئمة حكماء يهتدى بهم ، ويستضاء بأنوارهم إذا ادلهمّ الأمر ، وطغى الضلال فى الناس .

وليس من الغريب أن يكونوا بهذه المنزلة الرفيعة التى رفعهم الله إليها وهم جزء لايتجزأ من رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، علمهم من علمه ، وأدبهم بأدبه ، وأطلعهم على وحى الله وشريعته وأسراره .

ويكفينا للدلالة على عظمتهم ، عليهم السلام ، أن حياتهم الشريفة ، التى ابتدأت بأمير المؤمنين « على » وختمت « بالمهدى » كانت جميعها امتداداً واستمراراً لحياة جدهم الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

وحياتهم المثلى كانت كلها وقفاً على الشريعة والأمة والمصلحة العامة ، فما أبقوا آية فى كتاب الله المرل إلا أوضحوها ، ولا حكماً من أحكام الله إلا بينوه على وجهه الأكمل .

وكان النبى الكريم يعرّف أمته منزلة أخيه « على » فيقول : « وأنا مدينة العلم وعلىّ بابها ، فمن أراد العلم فليأته من بابه »[1].

---

(١) ص ٣٨ من الاستيعاب ، الجزء الثالث

ويقول : « أعلم أمتي من بعدى على بن أبي طالب »(١).

وعن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وآله قال : « ياعلى ، أنت تبين لأمتى ما اختلفوا فيه من بعدى »(٢).

وكان يقول صلى الله عليه وسلم : « قسمت الحكمة عشرة أجزاء فأعطى علىّ تسعة أجزاء والناس جزء واحداً . وعلى أعلم بالجزء الواحد منهم »(٣)

وإنا لنراه عليه السلام ، مع قصر مدة خلافته ، ومع المشكلات التى واجهته فى عهده ، قد ترك من بعده « نهج البلاغة » الذى هو أعظم دستور للأمة الإسلامية . يرشدها للطريق المستقيم فى خطبه البليغة ، وآرائه الصائبه ، وكلماته القصار الحكيمة .

وقد أبقى من أحكامه فى القضاء ماكان مصدراً يرجع إليه المجتهدون عند إصدار أحكامهم منذ صدر الإسلام إلى عصرنا الحاضر .

ونرى الإمام الحفيد علياً زين العابدين ، وهو فى أشد محنته ، وفى أيام بنى أمية الظالمة لأبيه وجده ، لايفتر على الأمة بالنصح ، فيرشدها إلى الخير ، وإلى كل عمل صالح فى « صحيفته السجادية » الشهيرة ، يوجه فى « زبور آل محمد » إرشاداته للناس عن طريق المناجاة والدعاء إلى الله ، وفى أدعيته البليغة من المعانى مايحير العقول والألباب . وقد أوضحت فى بحث « جهاد الإمام الصامت » الأهداف التى تضمنته هذه « الصحيفة السجادية » الخالدة .

---

(١) ص ٣٣ من منتخب الكنز .

(٢) ص ٣٣ من منتخب الكنز .

(٣) ص ٣٣ من منتخب الكنز .

وجدير بالمسلم المؤمن ألا يخلو داره – بعد القرآن الكريم – من « نهج البلاغة » ، ومن « الصحيفة السجادية » .

والنهج والصحيفة بعد القرآن والسنة – توأمان ، وهما دون كلام الخالق والنبي وفوق كلام المخلوقين .

ونرى الإمام الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام ، لما ساعدته ظروفه ، قد فتح بابه للناس ، فكانت داره في عصره الزاهر أعظم مدرسة للأمة ، خرّجت الأعلام في الفقه والتفسير والحديث وسائر العلوم الإسلامية .

وقد كثر الرواة عنه من مختلف المذاهب الإسلامية ، فكان أربعة آلاف رجل يقولون : حدثني جعفر بن محمد .

وقد جمع من رواياته التي أخذت عنه بدون واسطة أربعمائة كتاب ، تعرف عند الإمامية « بأصول الأربعمائة » .

ولكن الفتن الهوجاء في تلك العصور لعبت دورها في تلك الأخبار ، ولولا لطف الباري عز اسمه بالأمة الإسلامية لامّحت تلك الآثار النبوية ، ولكن الله تعالى قد هيّأ أعلاماً من حملة علوم أهل البيت نذروا أنفسهم لخدمة أئمتهم ، فوقفوا أقلامهم وأفكارهم وأوقاتهم لجمع أحاديث « العترة الطاهرة » بكتب كانت – ولاتزال – المصدر الفياض لكل مجتهد يرجع إليها عند استنباط الأحكام الشرعية .

وهذه الكتب هي الكتب الأربعة : « الكافي » ، و« من لا يحضره الفقيه » ، و« التهذيب » ، و« الاستبصار » – وهي خلاصة ما أمكن تحصيله من « أصول الأربعمائة » ، وهي للمحمدين الثلاثة الأوائل ، محمد بن يعقوب الكليني صاحب الكافي المتوفى في شهر شعبان ، سنة ٣٢٩ هـ ،

وهى السنة التى توفى فيها أبو الحسن على بن محمد السمرى آخر السفراء الأربعة وقد اشتمل الكافى على ١٦١٩٩ حديثاً .

ومحمد بن على بن الحسين بن موسى بن بابويه القمى المتوفى سنة ٣٨١ هـ ، وقد أدرك من غيبة الإمام المهدى الصغرى نيفاً وعشرين سنة ، وهو صاحب « من لا يحضره الفقيه » . وقد اشتمل على ٣٩١٣ حديثاً مسنداً ، و ١٠٥٠ حديثاً مرسلاً .

ومحمد بن الحسن بن على الطوسى شيخ الطائفة فى عصره ، وهو صاحب « التهذيب والاستبصار » المتوفى سنة ٣٦٠ فى شهر المحرم الحرام . وقد اشتمل الاستبصار على ٥٠١١ حديثاً .

وقد قام بعد « المحمدين » الأوائل المحمدون الثلاثة الأواخر ، وهم محمد بن الحسن الحر العاملى صاحب « وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة » ، ومحمد الباقر المجلسى صاحب « بحار الأنوار » ، ومحمد بن مرتضى المشهور بمحسن الفيضى صاحب « الوافى » .

وقد استدرك المرزا حسين النورى على الوسائل بكتابه الجليل « مستدرك الوسائل » ، فذكر فيه كل ما أغفله الشيخ الحر مما لم يعثر عليه فى الكتب المعتبرة ، أو عثر عليه ولم ينقل عنه ، لعدم معرفته بمجامعه ، وهو من خيرة الكتب المؤلفة فى هذا الفن .

وقد قام سيدنا العم المرحوم السيد حسن الصدر ، المتوفى سنة ١٣٣٥ هـ فشرح « الوسائل » شرحاً وافياً أبان فيه فقه الحديث وسنده ودلالته ورجاله بما لم يسبق إليه سابق . . .

واختلاف الرأى لا يفسد فى الودّ قضية ، وشأنها فى ذلك شأن المذاهب

الأربعة نفسها . فإن بعض المذاهب قد يرى فى المسألة الفقهية رأياً ، ويرى المذهب الآخر رأياً يخالف رأيه ، وهذا طريق المجتهدين الذين يتوصلون إلى الحكم بحسب المسند الذى يكون مدركاً لهم حين الاستنباط .

والواقع أن الحالة اليوم قد اختلفت كل الاختلاف عن السابق ، فقد حصل كثير من التقارب والتفاهم ، لسهولة المواصلات ، وكثرة الزيارات ، ووفرة الكتب والمصادر والمراجع ، وتفهم كثير من أهل العلم والقلم ضرورة التعارف والتكاتف والتآلف فى كثير من البلاد العربية ، فصدرت عشرات المؤلفات التى تحمل هذه الروح الإسلامية الطيبة .

ولا يفوتنا أن نذكر بالفخر والشكر موقف « دار التقريب بين المذاهب الإسلامية » فإنها حجر الأساس للسير فى هذا الصراط المستقيم . رحم الله رجالها الماضين ، وبارك الله فى رجالها الباقين ، وسدد خطواتهم لما فيه خير الأمة وصلاحها .

* * *

فى القرآن الكريم والسنة النبوية المقدسة آيات بينات ، وأحاديث شريفة تدل كل الدلالة على منزلة أهل البيت فى نظر الله تعالى ، ونظر الرسول العظيم الذى يرى لهم كل مقام كريم .

وقد حالفك التوفيق فى كل ما أوردته دليلا على هذه الفضائل فى كتابك القيم بما تضمنه من الشواهد والأدلة التى تقنع المنصف وترشد كل من أراد الحق .

ولقد نسب لعبد الله بن عباس رأيان فى تفسير « آية المودة » : رأى نقله عنه عكرمة أن المقصود من الآية : أن تودونى فى قرابتى منكم ، أى

تراعوا ما بينى وبينكم ، فتصدقونى لقرابة الرحم ، كأنه قال : اتبعونى للقرابة إن لم تتبعونى للنبوة .

وفى هذا المعنى يراد صرف الآية عن هدفها الأسمى من التوصية بقرباه وذويه .

والمعنى الثانى الذى نقل عن حبر الأمة فى تفسيره (ومن يقترف حسنة) أنه قال : الود لآل محمد ، وهو الذى اتفقت كلمة « أهل البيت » وعليه أجمع المفسرون كافة .

والوجوه التى أفادها المحقق الفخر الرازى وذكرتموها فى خاتمة البحث عن آية المودة كانت من خير الكلام وأجوده .

وكنت أود أن تعلقوا على الوجه الأول الذى نقله عكرمة ، فتوضحوا بأنه وجه لاصحة له ، لأنه رأى يتنافى مع سيرة عبدالله بن عباس المعروفة بالمودة والولاء لعلى وأهل بيته .

على أن عكرمة أمره معروف ، وانحرافه عن « أهل البيت » معلوم ، بالإضافة إلى كذب عكرمة على ابن عباس مماهو مستفيض ومشهور.

وقد عرضت لكذب عكرمة على سبيل التفصيل فى كتابنا « الإجماع » فى التشريع الإسلامى ، فالأمل الرجوع إليه .

وكم كنت أتمنى أن ترجعوا إلى « الكلمة الغراء » فى تفضيل الزهراء ، فتقرءوا الفصل الثالث الخاص بآية المودة ، لتطلعوا على كلام سيدنا الخال المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين فى رد هؤلاء المنحرفين الذين أرادوا تحريف الكلم عن مواضعه ، ليصرفوا الآية عن أهلها حسداً منهم وحنقاً ، وقد شاء الإمام الشافعى أن يسجل ولاءه لذوى المودة ،

فأعرب عن ذلك بهذه العاطفة الشعرية المشكورة فقال رضوان الله عليه :

يا أهـل بيت رسول الله حبكم ... وضيء من الله فى القرآن أنزله

كفاكم من عظيم القدر أنكم ... من لم يصل عليكم لاصلاة له

فأشار فى البيت الأول إلى آية المودة التى فرضت على المسلم هذا الحب ، وأشار فى البيت الثانى إلى وجوب الصلاة على الآل بعد الصلاة على جدهم الرسول الأعظم فى تشهد المسلم عند كل صلاة ، فإن من يقتصر فى الصلاة على النبى بطلت صلاته بإجماع المسلمين ، لذلك نراه صلى الله عليه وآله ينهى الذاكر له أن يقتصر على الصلاة الخاصة به صلى الله عليه وسلم بمفردها ، ويعدّها بتراء إذا لم تقترن بآله فيقول : « لاتصلوا علىّ الصلاة البتراء » . والأحاديث فى كيفية الصلاة عليه وعلى آله كثيرة ومشهورة ، فلا حاجة إلى ذكرها ، وهى لاتخفى على الباحث المتتبع .

ولا شك أن حثه على اقتران الآل به يشمل المخاطب ، إذ أمر بذكره صلى الله عليه وسلم سواء كان فى التخاطب أو فى الكتابة ، ولكن نرى المؤلفين من إخواننا ، رعاهم الله ، يقرنون الآل بجدهم فى خطبة الكتاب فقط ، ويصلون الصلاة البتراء على الآل كلما مر ذكرهم فى سائر مواضع الكتاب . ولم أر من قرنهم بجدهم فى الصلوات كلها سوى محمد بن على الشوكانى رحمه الله ، فقد سار طبق منهج النبى صلى الله عليه وسلم الذى سنه لأمته فى الصلوات فى سائر مؤلفاته وكتبه .

ومن يبارى هذا « البيت » العظيم ؟ ففاطمة سيدة النساء بنص أبيها ، وهى نفس النبى بنص آية المباهلة ، والحسنان ريحانتا النبى ، وهما

إماما قاما أو قعدا ، وهم سلام الله عليهم وبقية الأئمة — كما قلنا — كانوا فى حياتهم استمراراً لحياة جدهم . يعلمون تأويل القرآن ، ويبينون السنة ، ويعلمون الناس أحكام الإسلام ، ويفهمون كل سر من أسرار الشريعة الغراء ، فهم إذن نفس النبى وشركاؤه فى القيام بالأعباء ، فليس من الغريب إذن أن يصلى عليهم المصلون كلما صلوا أو ابتهلوا إلى الله بالدعاء .

وليس من الغريب من رسول الله . وهو المطيع لأوامر الله ونواهيه ، أن يسير على الدرب الذى سنه الله ، فيقرن الرسول اسم عترته باسمه ، ويطلب ذكرهم معه كلما ذكره الذاكرون من أمته .

ويشير أيضاً صلى الله عليه وسلم بذكر اسمهم معه إلى أنهم أولياء عهده ، والقائمون من بعده ، كما هو الشأن بذكر أسماء أولياء العهد بعد أسماء الملوك كلما دعت إلى ذلك مناسبة .

وقسماً بالله العظيم لو كان لغيرهم هذا المقام لآثر الرسول أرحامه وقدّمهم ، ولكنه مقام كريم أراده الله لهم ، لأنهم سلام الله عليهم كما قال القائل :

من معشر حبّهم دينٌ وبغضهم ... كفرٌ وقربهم منجىً ومعتصمُ
إن عُدَّ أهلُ التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل مَن خيرُ أهل الأرض قيل همُ

* * *

ولعل أقوى دليل يدل على عظمة « أهل البيت » عند الله والرسول آية المباهلة التى تقول : (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) ، فإنه صلى الله عليه وآله لم يدع للمباهلة

من النساء سوى بضعته الزهراء ، ومن الأبناء سوى ريحانتيه الحسنين ، ومن الأنفس إلا أخاه عليًا الذى كان منه بمنزلة هارون من موسى ، كما عبر عنه فى حديث مستفيض متواتر عند المسلمين كافة .

فهؤلاء الصفوة الذين أرادهم الله للمباهلة ، وهؤلاء الذين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، لم يدع أحداً من الأنبياء ، ولا النساء ، ولا الرجال من آل هاشم ، أو من غيرهم من المسلمين الذين كان لهم المنزلة والفضل ، والمكانة عند الناس .

وأنت ترى النبى صلى الله عليه وآله قد تقدم إلى النصارى بريحانتيه الباقتين الحسن والحسين ، غير مقتصر على أحدهما ، لأن لكل منهما منزلته ، فلا يمثل أحدهما الآخر ، وإنما هما نظيران ، فدعوة أحدهما ترجيح بدون مرجح ، لذلك دعاهما معاً ممثلا بهما الأبناء ، ولو كان لهما نظير لدعاه كما أدعاهما .

ولما لم يكن فى النساء من يقاس ببضعته « الزهراء » ترى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم يستغنى بوجودها عن وجود غيرها ، فكأنه إذ دعاها دعا النساء جمعاء ، لأنها أم الأئمة ، وسيدة نساء هذه الأمة .

أما « على » فقد دعاه الرسول صلى الله عليه وآله ليمثل نفس النبى ، لأنه وصيه ، وخليفته ، وولى عهده ، فهو باستطاعته أن يمثله ، ويقوم مقامه ، لذلك كان علىّ بنص القرآن نفس النبى ، وكان النبى نفس الوصىّ ، ليس فى ذلك شك لأحد من الناس .

ولو وجد نظير فى المسلمين للإمام لضمه إليه ، ودعاه معه كما صنع فى الحسن والحسين ، فالاقتصار عليه أقوى دليل على أنه ليس فى أمة

النبي من يكون نفسه غير عليّ ، وقد فصلنا ذلك فى فصل « نفس » من كتابنا « حياة أمير المؤمنين » .

وقد فهم الإمام من هذه الآية عظيم منزلته . فاحتج بها على أحقيته بالخلافة . قال الدارقطنى : « إن عليًا يوم الشورى احتج على أهلها فقال لهم : أنشدكم الله ! هل فيكم أحد أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرحم منى ، ومن جعله صلى الله عليه وسلم نفسه ، وأبناءه أبناءه ، ونساءه نساءه غيرى ؟ . . قالوا : اللهم لا »(١) .

وأنت ترى أنهم اعترفوا له بأن الله جعل نفس النبى نفس الوصى فى آية المباهلة ، كما أنهم أقروه على فهمه منها أحقيته بالخلافة ، ولو كان لهم شك فى ذلك لصارحوه وناقشوه الحساب ، لأن المقام مقام مناظرة ومفاخرة ، استعرض فيه الإمام كل ما له من ميزات تؤهله لمنصب الإمامة .

ومن المعلوم أن عمر بن الخطاب – قبل وفاته – قد وضع ثلاثة شروط لمن يلى بعده أمور المسلمين :

١ – أن يبايع على أن يعمل بكتاب الله .

٢ – وأن يعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ وأن يعمل بسنة الشيخين .

وكان أول ما عرضت هذه الشروط على الإمام ، فقال لهم : أبايعكم على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمل برأيى .

ولما امتنع الإمام أن يعمل بالشرط الثالث ، عرض الأمر على عثمان فقبل الشروط أجمعها ، فتم له الأمر ، وبايعه الناس كما هو معلوم .

---

(١) ص ٩٣ من الصواعق المحرقة

أما امتناع الإمام فواضح ، لأنه – عليه السلام – كان يرى أنه إمام بنصّ النبي ، وبوحي من الله تعالى أنزله على النبي يوم غدير خم ، كما شاع قد وذاع ، وطبق الأسماع .

والإمام يعلم أحكام الشريعة وأسرارها بتعليم من النبي الذى علمه من علم الله تعالى ، فطريقه إلى الأحكام القرآن والسنة ، وهما قطعيان بالنسبة إلى الإمام ، فلا يحتاج إذن إلى غير طريقهما ، وإلى أى فرد من الناس فى فهم منطوقهما .

هذا إذا نظرنا إليه كإمام ، وكذلك الأمر معه إذا نظرنا إليه كمجتهد مطلق ، لأن المجتهد يجب عليه أن يعمل بما توصل إليه رأيه ، ولا يجوز له أن يقلد مجتهداً آخر ، مهما كانت مرتبته ، فى أى حكم وصل إليه رأيه ، وإذا قلد المجتهد غيره خرج من الاجتهاد إلى التقليد ، وهو محرم عليه ، نعم ، يجوز للمجتهد أن يعمل بالاحتياط فقط ، وإن كان له رأى خاص ، وهذا لا يجعله مقلداً للغير .

ونحن إذا رجعنا إلى عهود من قبله عليه السلام – وجدناهم يرجعون إليه سلام الله عليه فى كثير من المسائل ، ولا سيما عهد « الثانى » منهم ، فكم مرة قال عمر – وهو خليفة على المسلمين – « لولا علىّ لهلك عمر » ، « ولا أبقانى الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن على » .

ومن كانت هذه منزلته فكيف يرجع إلى غيره ، أو يعمل برأى سواه ؟ ويرى البعض أن الإمام كان عليه أن يرضى بالشروط ثم يعمل برأيه كيفما شاء ، وهذا نظر قاصر ، لأن المؤمنين عند شروطهم ، فلا يجوز أن يقبل الشرط ثم يعمل على خلافه ، على أن رضاه بالشرط الثالث

اعتراف منه بصحة آراء من سبقه ، مع العلم بأنه يخالفهم فى كثير من الآراء والأحكام ، كما هو واضح لمن وقف على المسائل الشرعية فى الفقه الإسلامى .

ونستطيع من هذا الإحجام أن نعرف عظمة الإمام فى الورع والتقوى ، والبعد عن الدنيا ، فإن حرف « لا » منه عليه السلام فى نفى الشرط الثالث قد أبعد عنه الدنيا ، وفضل أن يبقى كفرد من المسلمين مادامو قد اشترطوا عليه شرطاً لايتفق مع الاستقلال بالرأى الذى هو سلاح المجتهد ، وحجر الأساس للاجتهاد .

ولم يكن ابتداؤهم بعرض الشروط على الإمام رغبة بمبايعته ، عليه السلام ، بل لأنهم قد علموا سلفاً رفضه عند وضعهم الشرط الثالث الذى يتنافى مع مقامه ومنزلته ، ولا يتفق مع تصريحه المستمر بإمامته .

فإقدامهم يوم الشورى على عرض الشروط ، مع هذا العلم ، كان إذن لإفهام الناس أنهم أرادوا مبايعة الإمام ، ولكنه — سلام الله عليه — هو الذى أصرّ على الإحجام .

ولو أنهم كانوا وراء الواقع لاكتفوا بآية المباهلة التى عدّته نفس النبى بدون أن يضعوا قيداً يدعو الإمام إلى الرفض ، ويصدّه عن القبول .

ولو أنهم تمسكوا فى اليوم الأول بعروته ، وبقوا على عهده وإمامته التى نصّ عليها النبى « يوم الغدير » ، لساربهم على الطريق المستقيم ، ولأوردهم — كما قالت « الزهراء » سيدة النساء — « منهلا نميراً صافياً ، روياً ، فضفاضاً ، تطفح ضفتاه ، ولا يترنق جانباه ، ولأصدرهم بطاناً ، ونصح لهم

سراً وإعلاناً ، ولكانت الأمة الإسلامية على مذهب واحد ، كما هي في دين واحد .

هدانا الله جميعاً لما فيه الخير والصلاح ، ووفقنا لأن نسير على هدى الأئمة الطاهرين ، مقتفين أثرهم ، مستضيئين بأنوارهم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

بغداد - الكاظمية ١ / ٥ / ١٩٧١

محمد صادق الصدر

obeikandl.com

السيدة فاطمة الزهراء

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال : « يافاطمة إن الله عز وجل
يغضب لغضبك ، ويرضى لرضاك »
(حديث شريف)

كريمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصغر بناته ، وأحبهن إليه . وقد انقطع نسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلا من فاطمة ، وبذلك يكون الله قد آثرها بالنعمة الكبرى ، فحصر فى ولدها ذرية الرسول وحفظ بها أشرف سلالة عرفتها العرب منذ كانت . فهى وحدها الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة ، والمنبت الطيب لدوحة الأشراف من آل البيت ، بل هى أطهر أمّ عرفتها الأجيال .

وأمها السيدة خديجة ، رضى الله عنها ، وهى قرشية أباً وأمّاً ، فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر . وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤى بن غالب بن فهر . وأم فاطمة هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن عمرو بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤى بن غالب بن فهر .

وبذلك تكون السيدة أم المؤمنين خديجة - رضى الله عنها - قد

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر فى الجزيرة العربية ، وكلاهما ينتهى نسبه إلى لؤى بن غالب بن فهر ، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك إلى هذا النسب المعرق فى النبل والسيادة ، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة ، فكانت قافلتها إلى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين فى كثير من الأعوام ، وأهم من هذا جميعاً بالنسبة إلى زوجة نبى ، وإلى جدة الأئمة من بيت النبوة ، أنها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية ، فأبوها خويلد هو الذى نازع « تبعاً » الآخر حين أراد أن يحتمل الركن الأسود (الحجر الأسود) معه إلى اليمن ، فتصدى له ، ولم يرهب بأسه غيرةً على هذا المنسك من مناسك دينه .

وابن عم السيدة خديجة ، هو ورقة بن نوفل ، وكان يعكف على دراسة كتب النصارى واليهود ، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها ، إذ لم يكن فى مكة مسيحيون يرجعون فى أمرهم إلى كاهن أو كنيسة ، وإنما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى إليه الشك فى عبادة الأصنام وتمنح به إلى البحث عسى أن يهتدى إلى عقيدة أفضل من هذه العقيدة .

وكان ورقة يعيب على أهل مكة عبادتهم الأصنام ، ويلتزم فى عبادته دين إبراهيم عليه السلام ، فاجتنب الخمر والميسر ، وكان يرحم الموءودة التى يفكر أبوها فى قتلها ، ويفتديها بماله ، ويربيها عنده ، حتى إذا كبرت ورغب أبوها فى استعادتها ردها إليه . ويقول ورقة بن نوفل فى ذلك كما جاء فى كتاب « الروض الأنف » :

لقد نصحتُ لأقوام وقلت لهم أنا النذير فلا يغرركم أحدُ

لا تعبدُنَّ إلهاً غير خالقكم ... فإن دعوكم فقولوا بيننا حَدَدُ(١)
سبحان ذي العرش سبحاناً يدوم له ... وقبلنا سبّح الجودي والجمد
مسخَّر كلُّ ما تحت السماء له ... لا ينبغي أن يناوي ملكه أحد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودي الأهل والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له ... والجن والإنس فيما بينها مردُ
أين الملوك التي كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يَفِدُ
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لا بد من ورده يوماً كما وَرَدُوا

وطالما استشارته السيدة خديجة في كثير من أعمالها ، وما يعنّ لها ، فكانت تجد عنده الرأي السديد والتنبؤ المصيب – ورأت أن تبادر بالذهاب إليه مع زوجها عليه السلام ، لتستطلع منه جلية ماحدث له قائلا : « إنك ستكون نبياً عظيماً ، وسيظهر دينك ويعم أرجاء العالم ، ولكنك الآن ستقابل بعلظة من الناس ، لأنك ستحولهم عن دينهم إلى دين آخر ، وهذا من أشق الأعمال ، وسيخرجونك من بلدك ، ولكن الله سينصرك » – ثم قال له ورقة بن نوفل : « ليتني أكون حياً ليدركني يومك فأنصرك نصراً مؤزرا » ونُسب إليه شعر كان يقوله في الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبي الصلت .

وقد هز هذا الحديث أحاسيس ورقة بن نوفل فقال :

لججت وكنت في الذكرى لجوجاً ... لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظاري يا خديجا
بما حبرتنا عن قول قس ... من الرهبان أكرم به حجا

(١) حدد : خصومة .

فإن محمداً سيسود فينا ... ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر فى البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا
فيلقى من يحاربه خساراً ... ويلقى من يسالمه فلوجا
فياليتنى إذا ما كان ذاكم ... شهدت فكنت أولهم ولوجا
ولوجاً فى الذى كرهت قريش ... ولو عجت بمسكنها عجيجا
فإن يبقوا وأبق تكن أمور ... يضج الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكل فتى سيلقى ... من الأقدار متلفة خروجا

ويروى فى كتب السيرة أن السيدة خديجة استغربت باسم جبريل حين ذكرته له ، فقال لها : إنه السفير بين الله وأنبيائه ، وإن الشيطان لايجترئ أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه .

ومن حديث ورقة بن نوفل يتبين لنا وجود حب دراسة الأديان بين بنى عم السيدة خديجة الأقربين ، وكذلك انفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن ، والمخاطرة بنفسه غيرةً منه على مناسك الكعبة ، وهذا كاف للإبانة عن طبيعة التدين التى ورثتها الأسرة من كان منهم فى الجاهلية ومن تحول عنها إلى النصرانية .

وكانت السيدة خديجة تسمى فى الجاهلية بالطاهرة ، وسيدة نساء قريش .

وقد تزوجت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين : تزوجت أبا هالة النباش بن زرارة ، وعتيق بن عابد المخزومى . وكان الزواج المرضى فى الجاهلية كالزواج فى الإسلام ، أى أن الرجل يخطب إلى الرجل بنته ، أو من له عليها ولاية ، ويقدم صداقها فيزوجه .

وقد ولدت السيدة أم المؤمنين ولداً من أبى هالة وسمته « هنداً » على عادة

العرب ، إذ كانوا يلقبون الذكور أحياناً بأسماء الإناث ، فهند هذا هو ربيب النبى صلى الله عليه وسلم ، أخو السيدة الزهراء لأمها ، عليهما السلام . وقد عاش وأدرك الإسلام وأسلم . روى عنه ابن أخته الحسن بن علىّ حديث وصف النبى صلى الله عليه وسلم المشهور فى الشمائل ، وكان « هند » وصافاً مجيداً ذا قدرة لم يؤتها أحد غيره على الوصف والتحدث عن الإسلام وفضائله ، وحديثه هذا أبلغ ماوصف به النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يقول : « أنا أكرم الناس أباً وأماً وأخاً وأختاً ، أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخى القاسم ، وأختى فاطمة ، وأمى خديجة رضى الله عنهم » وقد شهد « هند » غزوة بدر ، وقتل وهو يقاتل فى صف إمامنا علىّ فى معركة الجمل . وقد تعمدت أن أعرّف القارئ بابن السيدة أم المؤمنين « هند » ، لأنى أرى ألا ندع شيئاً يتعلق بسيرة السيدة الجليلة مهملا ، ولاسيما أن الذين كتبوا فى هذه السيرة العطرة لم يتعرضوا لذكر « هند » ، فكاد يضيع ، وعذرهم فى ذلك أنهم إنما يتعرضون لسيرة هذه السيدة الكريمة على العالب منذ تشرفها بزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وعذرهم أيضاً أنه من ذا الذى يعلم أن هذه السيدة اتصلت بشمس الهدى « محمد » صلى الله عليه وسلم وولدت منه فاطمة الزهراء أم الحسنين ، ثم يرجع باحث عن ابنها ذاك من زوجها الأول أبى هالة ؟ كما رزقت السيدة خديجة من زوجها الثانى « عتيق بن عابد المخزومى ، بنتاً اسمها « هند » أيضاً ، وقد أسلمت ، وكانت صحابية مشهورة ، وقد أعرضت السيدة أم المؤمنين عن الزواج بعد وفاة زوجها مع كثرة المتقدمين لها من أشراف قريش ، حتى سعدت آخر الأمر وأسعدت بزواجها من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت هى أولى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم . وعاشرته خمسة عشر عاماً قبل

النبوة وعشر سنين بعدها .

واتصل سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام بالعمل فى تجارتها بمشورة من عمه أبى طالب ، وقد قال له : « يابن أخى أنا رجل لامال لى ، وقد اشتد علينا الزمان ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مال ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حصر خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك فى عيرها ، فلوجئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك » . وذهب أبوطالب إلى السيدة خديجة رضى الله عنها ، وقال لها هل لك يا خديجة أن تستأجرى محمداً ؟ فأجابته على رضى وكرامة وقالت له : لو سألت ذلك لبعيد بغيض لأجبناك ، فكيف وقد سألت لقريب حبيب ؟ .

وقد سافر النبى إلى الشام ، وربحت تجارته ، فأكبرت من نبى مروءته وأمانته وحذقه ، وأحبته ، وودت لو يخطبها مع الخطاب فقد تهافت الخطاب عليها ، وقد أحجم النبى حياءً ، وأحجمت هى عن التصريح . وكانت لها صديقة اسمها نفيسة – وهى أخت يعلى بن أمية – فأوعزت لها أن تشجعه على التقدم لها ، ولم يكن صعباً على السيدة نفيسة أن تؤدى هذه الأمانة ، لأنها ستتكلم كأنها صاحبة رأى تشير به حتى إذا وجدت مجالا كانت وكيلة فى إبداء القبول ، ولم تكن النساء فى ذلك الوقت ممنوعات من الحديث مع الرجال ، فلم تكن رسولة خديجة محتاجة إلا إلى شىء من قوة الجنان أمام ذلك المهيب العظيم .

وتتحدث السيدة نفيسة فى ذلك كما رواه ابن سعد بإسناده فتقول : كانت خديجة بنت خويلد بن عبد العزّى بن قصى امرأة حازمة جلدة

شريفة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكل قومها كانوا حرصاء على نكاحها لو قدروا على ذلك . قد طلبوها وبذلوا لها الأموال وتقول السيدة نفيسة :

« استدعتني خديجة إليها عقب وصول قافلتها التي كان محمد الأمين يشرف عليها ويقودها ، فقالت : « لقد اخترتك لأمر هم ثقة بك » ، قلت : أنا أطوع لك ياسيدتي من بنانك . قالت : انطلق إلى محمد وذكريني له .

فذهبت نفيسة إلى ابن عبد الله فقالت له : مايمنعك أن تتزوج واعتذر لها بقلة المال اللازم للقيام بشئون العائلة ، قلت : فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة ؟ قال لها : ومن ؟ قالت له : خديجة ، فقال : خديجة الشريفة المعروفة بطاهره ، هي المناسبة ، هي الموافقة ، هي الصالحة ، اذهبي يا نفيسة فإني سأخطبها » .

وروى الزهري صاحب أقدم السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشريكه الذي كان يتّجر معه في مال خديجة : هلم فلنتحدث عند خديجة . وكانت تكرمهما وتتحفهما ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستشفة - أي كاهنة - فقالت له : جئت خاطباً يامحمد ؟ فقال : كلا ، فقالت : ولم ؟ والله ما في قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كفئاً لها . . . ولم يمض وقت طويل حتى أتى محمد خاطباً ، ومعه عمه حمزة ، فقال وهو يفاتح عمها عمرو بن أسد بن عبد العزى : إن محمداً ممن لا يوازن به فتًى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلا وفضلا وعقلا وإن كان في المال قُلاًّ فإنما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله في خديجة

بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك » . فقال عمرو : « هو الفحل الذى لا يُقْدَع أَنفه » ، وهو مثل عربى يقال للكفء لا يرد إن خطب .

وفى رواية : أن الذى خطب هو أبوطالب فقال : « الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وأصل معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسوكة حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح ، وإن كان فى المال قُلاًّ فالمال ظل زائل ، وأمر حائل ، وعارية مسترجعة ، ومحمد ممن قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خَديجة بنت خُويلد ، وله فيها رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلىّ ، وهو والله – بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل جسيم » .

وما إن أتم أبو طالب خطبته حتى تكلم ورقة بن نوفل ، فقال : الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لاتنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا علىّ معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار » .

ثم سكت ورقة ، وتكلم أبو طالب وقال : « قد أحببت أن يشركك عمه » ، فقال عمها : « اشهدوا علىّ يامعشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد » ، وشهد على ذلك أشراف قريش .

وقد اختلفت الروايات فى سن أم المؤمنين عند زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقول ابن عباس : إنها كانت فى الثامنة والعشرين

وهذا الرأى أقرب إلى الصحة ، ويؤيده المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد فيقول : « وأحْرِ بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات إلى الصحة لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها ، ولأن المرأة فى بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ، ويبكر فيها الكبر ، لا تتصدى للزواج بعد الأربعين ، ولا يعهد فى الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد . وقد يرجح تقدير ابن عباس غير هذا أن مثل خديجة تتزوج فى نحو الخامسة عشرة أو قبلها ، لجمالها ومالها وعراقة بيتها وطمأنينة أهلها ، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد ، وإن كنا لانعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجها من أبى هالة ومن عتيق ، فمن الكلام عن ذريتها منهما يبدو أن أيمها معهما لم ترد على بضعة أعوام » .

وشاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يكون للرسول صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين السيدة خديجة كل أولاده من البنين الطاهرين والبنات الطاهرات إلا إبراهيم فإنه كان من السيدة مارية . ويصف الرسول السيدة خديجة بقوله : « والله ما أبدلنى الله خيراً منها ، آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء » . وقد أوفى لها بعد وفاتها فكان دائم التذكار لها . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام ، فأدركتنى الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزاً ، وقد أبدلك الله خيراً منها . فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب . وتقول السيدة عائشة أيضاً : « كان رسول الله إذا ذبح الشاة يقول أرسلوا

إلى أصدقاء خديجة ، قالت : فذكرت له يوماً ، فقال : إنى لأحب حبيبها ، . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم . كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد . وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » وفى رواية أخرى . قال صلى الله عليه وسلم : « خير نساء العالمين مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد » . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « خط رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأرض أربعة خطوط قال . أتدرون ما هذا ؟ قالوا . الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران وآسيا بنت مزاحم » . وفى هذا أيضاً يقول الكاتب الفرنسى « أتيه دينيه » فى كتابه « محمد رسول الله » : « كان لخديجة فى نفس الرسول جاذبية قوية فلم يشرك معها غيرها طيلة حياتها ، وبرغم أنه كان فى ريعان شبابه ، فإنه لم يقبل الزواج بأخرى مع أن التقاليد كانت تسمح بذلك ، ومع أن الأسباب من كل جانب كانت تمهد له وتغرى به . وإذا كانت قد فارقته فإن ذكراها دائماً كانت على لسانه ، وكانت عائشة التى صارت زوج الرسول المفضلة تجد لذع الغيرة ، وتحس به فى قسوة . وبرغم جمال عائشة وذكائها ، ومما تحلت به الأخريات من جمال وفطنة ، فإنه كان دائماً يفضل عليهن خديجة ، ويعدها واحدة من أربع نساء أكمل من وجدن على ظهر البسيطة ، أما الثلاث الأخريات فهن : آسيا امرأة فرعون التى أنقذت موسى ، ومريم أم عيسى ، وفاطمة الزهراء » .

رُوى عن السيدة خديجة ماقالته للرسول صلى الله عليه وسلم حين فاجأه الوحى ، فعندما قال الرسول : « لقد خشيت على نفسى » أرادت أن تسرى عنه ، وقد آمنت أنه الوحى . وليس بعارض من عوارض الجنة : « كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانات » .

وفى ذلك يقول « درمنجم » فى كتابه « حياة محمد » ، واصفاً وفاءها : « جاءها زوجها من غار حراء خائفاً مقروراً ، غريب النظرات فإذا بها ترد إليه السكينة والأمن ، وتسبغ عليه ود الحبيبة ، وإخلاص الزوجة ، وحنان الأمهات ، وتضمه إلى صدرها ، فيجد فيها حنان الأم الذى يحتمى به من كل عدوان فى الدنيا » .

وفى ذلك أيضاً تقول الدكتورة بنت الشاطئ : « هل كان لزوجة عداها أن تستقبل دعوته التاريخية من غار حراء بمثل ماستقبلته هى به من حنان مستثار ، وعطف فياض وإيمان قوى ، دون أن يساورها فى صدقه أدنى ريب ، أو يتخلى عنها يقينها فى أن الله غير مخزيه أبداً ؟ هل كان فى طاقة سيدة غير خديجة ، غنية مترفة منعمة ، أن تتحلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة ، لتقف إلى جانب رجلها فى أحلك أوقات المحنة ، وتعينه على أفدح ألوان الأذى ، وصنوف الاضطهاد ، فى سبيل ما تؤمن بأنه الحق ، كلا . بل هى وحدها ، ولا امرأة إلا مثلها ، التى أعدتها الأقدار لتملأ حياة الرجل الموعود بالنبوة ، وتكون لليتيم أماً ، وللبطل ملهمة ، وللمناضل ملاذاً وسكناً ، وللنبى المبعوث ثقة وطمأنينة وسلاماً » .

ويقول ابن إسحاق : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايسمع شيئاً يكرهه ، من ردٍّ عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرَّج الله عنه بخديجة رضى الله عنها ، إذا رجع إليها تثبته ، وتخفِّف عنه ، وتصدقه ، وتهوِّن عليه أمر الناس حتى ماتت ، رضى الله عنها» .

أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «أقرئ خديجة السلام من ربها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياخديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك ، فقالت خديجة : الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام» .

ولا بد هنا من وقفة قصيرة ، قبل أن أدخل فى سيرة السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء ، فقد حدث فى إحدى الأزمات أن كانت ملائكة الرحمة تحوم فى ذلك البيت حول أحد الصبيان ، وتطوف فى آفاق نفسه ، لتطهرها من كل شر ، لا يخرج من هذا البيت إلا وهو قدوة الناس فى الخير والصلاح ، وكان هو لاهياً عما أعدّ له ، وعابثاً بمثل ما يعبث به أترابه ، ولم يكن هذا الصبي يتيماً ، بل كان أبوه حيًّا ، ولكن أبناء السعادة ، أبناء المجد الأبدى ، أبناء المجد السرمدى تستأثر العناية الأزلية بكفالتهم وتربيتهم بصورة خاصة رغم ما يميزها من هيئت بصائرهم للاطلاع الجيد .

لم يكن أبو هذا الصبي ليسمح - وهو حيّ - أن يتربى كالأيتام فى غير بيته ، لأنه هو ذلك الشهم الشهير والشريف الخطير «أبوطالب» . ولكن اشتداد الأزمة فى إحدى السنين اضطره أن يقبل رجاء أخيه «العباس» وابن أخيه «محمد الأمين» بأن يأخذ كل واحد منهما ولداً من أولاده تخفيفاً عنه ، فكان هذا الأسعد الذى أخذه الأمين هو علىّ الذى صار

الإمام أبا الأئمة ، وبدر سماء السيادة فى الأمة .

كانت تربية علىّ فى هذا البيت من جملة المكتوب للسيدة خديجة من حسن الحظ ، فإن الغيب كان يعدّه لأمر جليل له علاقة بهذا البيت.

لعله لم يخطر على بال أهل هذا البيت إذ ذاك أن هذا الصبى الذى يدرج أمامهم ، فيسرون به ، سيكون الواسطة الوحيدة لحفظ نسلهم . ومن أين كانت تعرف السيدة خديجة أنه لن يعيش لها من الذكور ولد ؟ وأن هذا الصبى قد أعده الغيب ختناً كريماً وبعلا صالحاً لبنتها الصغيرة ؟ وكيف تعلم أنه لا يتسلسل لها عقب إلا من تلك الكريمة فاطمة الزهراء ؟ وأنّى يخطر فى بالها أنها كانت تربى هى وروجها جدًّا لعترة تتصل بهذا البيت ، سيعدها العالم من أشرف العتر ، وستبقى مباركة فى الأرض دهوراً طويلة ، عالية المنار ، عظيمة الشأن ؟ وقد استفاد من هذا البيت كثيرون . أما علىّ فأنا أخصه بالذكر ليعرف من عرفه ، أو سمع بمناقبه العاليه وفضائله الكثيرة ، كيف كان هذا البيت السعيد مسعداً للأرواح ، كما كان مسعداً للأبدان ، ثم ليُعرف أن البيت الذى أخذ ابن أبى طالب آدابه فيه منذ كان صبياً قد كان مهداً لأكرم الآداب وأعلاها فإن علىًّ المرتضى هو من عرفه العالم كله ، هو ذلك الإمام الأكبر الخليق أن يكون مثال النبل وعظمة النفس ، هو مجمع المعالى وملتقى الأسرار العظمى ومظهر الولاية الكبرى ، وقد نعم علىّ بالحنان الكامل من الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن السيدة خديجة حناناً دونه حنان الآباء والأمهات .

ومن السيدة خديجة رضى الله عنها ولد للنبى صلى الله عليه وسلم جميع أبنائه ، وهم : القاسم ، والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ،

وفاطمة . وقد مات القاسم والطيب والطاهر بعد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم . فكان العاص بن وائل السهمى يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبتر ، لأن العرب كانوا يسمون من ليس له ابن بالأبتر ، فأنزل الله تعالى : (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)(١).

على أنه إن كان لا خلاف فى أن أولاد الرسول عليه الصلاة والسلام كلهم من السيدة خديجة رضى الله عنها ، ما عدا إبراهيم ، فإن الرواة اختلفوا فى عدد الذكور .

ويقول ابن إسحاق : أكبر بنيه القاسم ، ثم الطيب ، ثم الطاهر .

والطبرى يقول : ولدت خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، القاسم ، والطيب ، والطاهر وهو عبد الله ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم وفاطمة .

وفى الاستيعاب : وأجمعوا أنه ولدت له أربع بنات كلهن أدركن الإسلام وهاجرن ، وهن : زينب ، وفاطمة ، ورقية ، وأم كلثوم ، كما أجمعوا أنه ولدت له ابناً يسمى القاسم ، وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم .

ويقول معمر عن ابن شهاب : زعم بعض العلماء أنها ولدت له ولداً يسمى الطاهر .

وقال عقيل عن ابن شهاب : ولدت له خديجة : فاطمة ، وزينب ، وأم كلثوم ، ورقية ، والقاسم ، والطاهر .

---

(١) والكوثر نهر فى الجنة ، أو هو الخير الكثير ، أو هو كثرة الذرية والنسل ، وكل أولئك خص به المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد ظهرت الكثرة فى نسله من ولد فاطمة رضى الله عنها ، وسيتصل نسله صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة إن شاء الله .

وقال قتادة : ولدت له خديجة أربع بنات وغلامين هما : القاسم وبه كان يكنى ، وعبد الله مات صغيراً

وفى « الروض الأنف » للسهيلى رواية عن الزبير بن العوام بن خويلد : « ولدت خديجة له : القاسم وعبد الله ، وهو الطاهر والطيب سمى بالطاهر والطيب لأنه ولد بعد النبوة ، واسمه الذى سمى به أولا عبد الله ، وبلغ القاسم سن المشى ، غير أن رضاعته لم تكن كملت عندما مات » — وفى الإصابة « فولدت له القاسم وعبدالله وهو الطيب والطاهر — سمى بذلك لأنها ولدته فى الإسلام » .

وقد رتبهم العالم الشيخ أحمد الحلوانى فى كتابه : « مواكب الربيع فى مولد الشفيع » بحسب ترتيب ولادتهم فقال :

بالقاسم ابن المصطفى وبزينب ورقية هب لى القبول وفاطمه
وبأم كلثوم وعبد الله جد وقنى بإبراهيم شر الحاطمه

على أن التوفيق بين هذه الروايات ليس بمتعذر[1] فيما يختص بعدد أبناء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد يقال : إن اللقب التبس بالاسم وجعل الطيب والطاهر ولدين مع القاسم ، فهم ثلاثة أو مع القاسم وعبدالله فهم أربعة ، وما الطيب والطاهر سوى لقبين لعبد الله ، وبذلك يكون للنبى صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة ولدان اثنان ، وهو المشهور عند جمهور المسلمين ، وهو ما يمكن ترجيحه بعد مقابلة كل الروايات . أما فيما يختص بوقت ولادتهما ووفاتهما ، فالتوفيق فيهما أشق وأعسر ، فقد انفرد ابن إسحاق بالرواية عن موتهما فى الجاهلية ، على حين روى غيره أن

(١) بنات النبى ، للدكتورة بنت الشاطئ .

القاسم ولد فى الجاهلية ومات فى الإسلام ، وأما عبد الله فولد ومات فى الإسلام . وذكروا فى سندهم الزبير بن العوام وهو ابن أخت السيدة خديجة وأحد العشرة السابقين إلى الإسلام .

وروى ابن سعد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان أكبر ولد لرسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم ، ثم زينب ، ثم عبدالله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية — فمات القاسم وهو أول ميت من ولده بمكة ، ثم مات عبد الله .

وقال ابن سعد : ثم ولدت له مارية بالمدينة إبراهيم ، فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجره ، فمات ابن ثمانية عشرشهراً .

وكانت السيدة خديجة إذا ولدت ولداً دفعته إلى من يرضعه ، فلما ولدت فاطمة لم يرضعها غيرها .

وقد أنشأ الأب لامنس المستشرق اليسوعى كتاباً بالفرنسية عن فاطمة وبنات الرسول صلى الله عليه وسلم ، استند فى إنشائه إلى مصادر كثيرة ، وذهب فيه المذاهب المنكرة ، فتارة ينكر وجود بعض بنات الرسول ، وتارة يتعمد إيذاءهن بما لايتورع عن نشره من أخبار عنهن تضطرب فى كثير من الإفك والبهتان . ويذكر لامنس حب الرسول للبنين ورغبته فى أن تكون له ذرية ، وكيف أنه كان يعير بين قومه بضعف ذريته ويسمونه « محمد الأبتر لايعيش له ولد ذكر » ، وكيف رد القرآن على هؤلاء فقال : (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) ، وكيف كان غيرهم يقول : « إن محمداً ليس له ولد ولا أخ ، فإذا مات انقطع ذكره » . وإن هذه الأسباب كلها حملت مؤلفى السيرة على الإكثار من أبناء محمد وبناته كالطيب والمطيب ، وعبد العزيز ،

وعبد مناف ، مع أنه من الصعب إثبات وجود هؤلاء الأبناء ، وخصوصاً أن مؤلفي السيرة النبوية أنفسهم يختلفون فى أسمائهم ووجودهم .

وكما ذكرت أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع بنات وثلاث بنين ، وكما بينت ، كلهم من السيدة خديجة رضى الله عنها ما عدا إبراهيم .

ومن سخافة لامنس وتفاهته أنه يحاول جهده أن يثبت أن الزهراء لم تتزوج قبل الثامنة عشرة ، لأنها كانت محرومة من الجمال ، ولم تصدق أن أحداً يخطبها بعد تلك السن . ثم يقول إنها لما عرض عليها النبي صلى الله عليه وسلم الزواج من على سكتت هنيهة ، ولكنها لم تسكت خجلا بل دهشة من أن يخطبها خاطب ، ثم تكلمت فشكت لأنها تزوج من رجل فقير . وقد فنّد الأستاذ العلامة عباس محمود العقاد هذه الفرية فقال :

« لوكان السند الذى استند إليه هذا المستشرق واضحاً ملزماً لقلنا إنها أمانه العلم ، ولا حيلة للعالم فى الأمانة العلمية ، لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت فى الثامنة عشرة من عمرها ، وتقابله أسناد أخرى تنقضه ، وتتراءى للمستشرق حيثما نظر حوله ، ولكنه لايحب أن يراها ، لأنه يحب أن يرى مايعيب ، ولا يحب أن يرى مالا عيب فيه .

فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين ، وأن أخواتها تزوجن من ذوى غنى وجاه ، كأبى العاص بن الربيع وعثمان بن عفان ، وليس من المألوف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال وأن تحرمه إحدى البنات . والمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة بلغت سن الزواج ، والدعوة المحمدية فى إبانها ، والمسلمون بين مهاجر أو مقيم غير آمن . والحال قد تبدلت بعد الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على

المسلمين ، وهؤلاء المسلمون فئة ، منهم المتزوج ، ومنهم من لا طاقة له بالزواج . فلا حاجة بالمستشرق إلى البحث الطويل ، ليهتدى إلى السبب الذى يؤخر زواج بنت النبى إلى الثامنة عشرة ، ولوكانت أجمل الجميلات . وفى وسعه كذلك أن يتصور أن النبى يخص بها ابن عمه . وينتظر بها بيت البت ، حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ، ويستقر على حال بينه وبين آله الذين لايزالون على دين الجاهلية ، فلاهم فى ذلك الوقت ذوو ، ولاهم بعداء عنه . كل ذلك قريب كان فى وسع ذلك المستشرق أن يراه تحت عينيه قبل أن يذهب إلى العلة التى اعتلها لتأخير الزواج ، فلا يرى له من علة غير فقدان الجمال . . . .

على أن لامنس لم يترك حتى ميلاد السيدة الزهراء بدون أن يحاول أن يحرف فيه ، وأن يختلق الأكاذيب ويستمر فيها . فجعل السيدة فاطمة هى البكر لبنات الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع أنها لم تكن البكر كما بينا . وذهب لامنس إلى الاستناد إلى بعض المؤرخين ولم يذكرهم بأسمائهم ، شأنه فى كل قول مختلق فى الكتب التى ألفها ، ثم ذهب إلى أن كتّاب السير أرخوا ميلاد السيدة فاطمة الزهراء حتى تكون فى سن الفتوة حين يخطبها على بن أبى طالب ، وحتى لايقال إن خطوبتها قد تأخرت كثيراً عن أخواتها ، وإن أحداً لم يهتم بها ، ولم يطلبها ، ولم يفكر فيها ، ولقد فاته أن جميع كتاب السير أجمعوا على أن زينب ورقية تزوجتا قبل فاطمة . ثم هل كان على بن أبى طالب بعيداً عن بيت رسول الله حتى يخطى عليه الأمر ، ليقال له إن فاطمة صغيرة فى السن أو كبيرة ؟ ! وفات لامنس أن علياً تربى فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويستمر لامنس فى مخافاته وأكاذيبه فيقول : « إنه لكى نصل إلى صورة حقيقية لفاطمة يجب علينا أن نترك الأكاليل الذهبية التى عقدها المؤرخون على مفرقها ، وأن نعرض لها وفاقاً للنقد التاريخى المعاصر ، فقد كانت فاطمة فى حياتها وفى بيت والدها تعامل معاملة عادية من والديها ومن غير والديها من الصحابة وغير الصحابة ، وليس هناك ناحية واحدة نرى منها فاطمة تتمتع بحظوة واحترام يفوقان ما كانت تتمتع به بدويات ذلك الزمن ، ولم يكن شأنها فى بيت والدها خطير الأثر بادى الخطورة ، بل لقد كان خطرها أقل شأناً من خطر عائشة وحفصة وزينب وغيرهن من نساء النبى . ولكن نتأكد من ذلك علينا أن نطلق البصر فى السير القديمة كسيرة ابن هشام مثلا ، فإن فاطمة ذكرت فى هذه السيرة مرتين فقط .

ويستمر لامنس فى أكاذيبه وحقده الدفين : فيقول أما هذا الإكبار والتعظيم والتقديس الذى يتمتع به أهل البيت اليوم فقد نشأ فى الجيل الثانى .

وأظن أننى لست فى حاجة إلى الرد على هذا الكذب الصريح والحقد الدفين ، فسيرى القارئ الكريم فى هذا الكتاب الرد الصريح على هذا الافتراء . ويكفى الزهراء رضى الله عنها شهادة والدها الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك » ، ويقول أيضاً : « فاطمة منى ، يؤذينى ما آذاها ويريبنى ما رابها » ، وقد شهدت السيدة عائشة رضى الله عنها لفاطمة الزهراء ، فقالت : « مارأيت أفضل من فاطمة إلا والدها صلى الله عليه وسلم » .

ويستمر لامنس فى كتابته عن بنات الرسول فيقول : « إن أسماء

بنات محمد كما تذكرها السيرة أسماء عادية ، وإن رقية وأم كلثوم ماتتا بدون أن يتركن ذرية ، وإن أم كلثوم ليس اسم ثان غير كنيتها ، وإنها تزوجت هي ورقية بابنى عمهما أبي لهب ، ثم تخلى زوجاهما عنهما ، فتزوجهما عثمان بن عفان الأولى بعد وفاة الثانية » . ويزيد لامنس أن مؤرخي السيرة أبعدوا رقية إلى الحبشة ، ثم أعادوها إلى والدها الذى وجدها ميتة بعد رجوعه من معركة بدر ، وأن اسم أم كلثوم مذكور مرة واحدة فى أقدم كتب السيرة ، وآلا وجود حقيقى لهاتين الأنثيين ، وأن مؤلفى السيرة النبوية قد اخترعوهما اختراعاً ، ولفقوهما تلفيقاً للإكثار من نسل الرسول ، صلى الله عليه وسلم .

ووقف لامنس من تسمية عثمان بذى النورين لما تزوج باثنتين من بنات رسول الله ، فقال : « إن الأسماء المبتدأة بذى وذو كانت كثيرة عند العرب ، فكانوا يسمون ذا اليدين ، وذا الوجهين ، وذات النطاقين ، ولذلك فإن لقب عثمان هذا لا يحملنا على الإيمان بأنه إنما لقب به لزواجه باثنتين من بنات النبى ، إذ لا يبعد أن يكون هذا اللقب من أسمائه الأولى » .

ويتكلم لامنس عن « زينب » ابنة الرسول الأولى ، فيعجب كيف انقرضت ذريتها دون أن تثير اهتمام العالم الإسلامى ، يعجب لماذا لم تهاجر مع والدها إلى المدينة لما اضطر إلى مغادرة مكة ، وقد ذكر اليعقوبى : « أنها ظلت مع زوجها أبى العاص بن الربيع بن العزى بن عبد شمس بن خالتها ، وأمه هالة بنت خويلد أخت خديجة لأمها وأبيها » .

فلا يسيغ لامنس هذا الخبر ، ويذهب إلى القول بأنها أبت مفارقة زوجها ، وفضلت البقاء معه على الهجرة مع والدها ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستند فى ذلك إلى ما جاء فى تاريخ الطبرى : « ولم يزل أبو العاص

معها -- أى زينب على شركه إلى قبيل فتح مكة » . والسيدة زينب رضى الله عنها هى أكبر بنات النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد تزوجت ابن خالتها أبا العاص بن الربيع قبل النبوة ، وكانت محبة لزوجها . ولما أسر أبو العاص فى وقعة بدر ، وكان مع مقاتلة قريش ، أرسلت زينب فى فدائه (الربيع) بمال دفعته إليه ، ومن ذلك قلادة كانت أمها خديجة قد أهدتها إياها يوم زواجها بأبى العاص ، فلما رأى رسول الله القلادة رق لها ، وقال للمسلمين : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها ففعلوا » ، فقالوا : نعم ، وكان أبو العاص مصاحباً لرسول الله مصافياً له ، وقد أبى أن يطلق زوجه لما طلبت قريش ذلك منه ، ولما أطلقه رسول الله من الأسر شرط عليه أن يرسل زينب إلى المدينة ، فوعده ووفى بوعده ، ولم تزل زينب بالمدينة ، وأبو العاص بمكة على شركه ، وكان قد طلق بينهما رسول الله ، حتى خرج أبو العاص بتجارة إلى الشام قبيل الفتح ، فبينما هو عائد من تجارته لقيته سرية لرسول الله ، فأخذته ومن معه من رجال وعير وأموال ، وتمكن أبو العاص من الهرب ، وعاد إلى المدينة متخفياً ، فدخل على زينب فاستجار بها فأجارته ، فلما صلى رسول الله صلاة الصبح صاحت زينب : « أيها الناس ، إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع » ، فلما سمع ذلك رسول الله أقبل على الناس ، وقال : « هل سمعتم ما سمعت ؟ » ، فقالوا : نعم ، فقال : « والذى نفسى بيده ، ما علمت بذلك حتى سمعتم » . وقال : « يجير على المسلمين أدناهم » . ثم دخل على ابنته فقال لها : « أكرمى مثواه ، ولا يخلص إليك ، فإنك لا تحلى له » . قالت : « إنه قد جاء فى طلب ماله » ، فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال تلك السرية ، وقال : « إن هذا الرجل منا حيث

علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، وهو مما أفاء الله عليكم به ، وأنا أحب أن تحسنوا وتردوا عليه الذى له ، فإن أبيتم فأنتم أحق » ، فقالوا : « بل نرده عليه » ، وردوا عليه ماله جميعه ، فعاد إلى مكة ، وأدى إلى الناس أماناتهم ، ثم سأل أهلها : هل لأحد فى ذمته بقية مال ؟ فقالوا : لا ، فقال : « فإذا كان الأمر كذلك ، فاعلموا بأني قد أسلمت » ، وعاد إلى رسول الله فأسلم ، ورد عليه الرسول زوجه بمهر جديد ، وولدت له زينب عليًّا وأمامة ، وقد توفى علىّ وهو صغير ، وعاشت أمامة حتى تزوجها على بن أبي طالب ، تنفيذاً لوصية السيدة الزهراء كما سنرى بعد قليل ، وكان رسول الله يحبها ، وهى التى كان يحملها فى الصلاة على عاتقه ، فإذا ركع وضعها وإذا رفع رأسه من السجود أعادها .

..

أصهار الرسول عليه الصلاة والسلام :

أما زينب فكما بينت كان زوجها أبو العاص بن الربيع ، وهو قرشى صميم ، يلتقى بنسبه من جهة الأب مع محمد بن عبد الله . . . بن عبد مناف ابن قصى ، فهو أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ، ويلتقى نسبه من جهة الأم مع زينب بنت محمد عند جدهما الأدنى خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، فأمه « هالة بنت خويلد » أخت خديجة الطاهرة زوج محمد وأم زينب .

وأما رقية وأم كلثوم فقد خطبتا لعتبة وعتيبة ابنى العم أبي لهب ، ولم تسترح السيدة أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها إلى هذه الخطبة ، وكأنها كانت تقرأ الغيب ، وكانت لا تستريح بطبيعتها لأمهما « أم جميل بنت

حرب » زوجة أبي لهب وأم ولديه ، ولو كان الأمر بيد السيدة خديجة لحالت دون إتمام هذا الزواج . وكانت أم جميل قاسية القلب شرسة الطبع حادة اللسان . وقد كانت قراسة السيدة أم المؤمنين فى محلها ، ولم يكذب ظنها ، فما كاد الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقى رسالة ربه ويدعو إلى الدين الجديد حتى أخرجت حمالةُ الحطب رقية وأمَّ كلثوم من بيت أبي لهب ، ورُدتا إلى بيت أبيهما . وقد كان هدف « أم جميل » إيجاد المتاعب أمام النبى صلى الله عليه وسلم ، ومحاربة خديجة أم المؤمنين فى بناتها ، وتعكير صفو الحياة الزوجية ، وتوقف نشاط الدعوة . لكن خاب ظن حمالة الحطب وظنّ المشركين من قريش ، فلم يشغل الرسول عليه الصلاة والسلام بابنتيه عن دعوته ، ولم يشق عليه رجوعهما إلى بيته ، فقد نجاهما الله من محنة العيش مع ابنى حمالة الحطب ، ثم مالبث أن أبدلهما خيراً منهما زوجاً صالحاً كريماً أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وهو « عثمان بن عفان بن أبي العاص بن عبد شمس » ، وتزوج عثمان رقيـة ، وكانا أول من هاجرا إلى الحبشة ، ثم عادا إلى مكة مع بقية المهاجرين ، ثم هاجرا مع الرسول إلى المدينة ، فمرضت رقية بالحصبة وماتت ، ولم يتيسر لزوجها عثمان بن عفان أن يشهد وقعة بدر بسبب انشغاله بزوجته ، وكانت وفاتها يوم ورد البشير إلى المدينة بنصر المسلمين وهزيمة قريش فى تلك الوقعة الحاسمة ، وقد سميت رقية ذات الهجرتين .

وقيل : إن عثمان كان قد أصيب بالجدرى قبل الخروج إلى بدر ، فحال مرضه ومرض زوجته دون الخروج إليها مع جلة الصحابة .

وكانت غبطة عثمان بمصاهرة النبى عليه الصلاة والسلام عظيمة ، وحزنه

لانقطاع هذه الصلة أعظم ، فلم يُر بعد ذلك إلا محزوناً مهموماً ، لفقد زوجته وانقطاع صلته بنبيه وأكرم الناس عليه ، ورآه النبي صلى الله عليه وسلم على تلك الحال فسأله : « مالى أراك مهموماً ؟ » ، قال فيما رواه سعيد بن المسيب : « وهل دخل على أحد ما دخل علىَّ يارسول الله ؟ ماتت ابنة رسول الله التى كانت عندى ، وانقطع ظهرى ، وانقطع الصهر بينى وبينك » ، فطيب النبي خاطره وزوجه أختها أم كلثوم ، وبقيت معه إلى أن توفيت فى السنة التاسعة للهجرة ، بعد بنائه بها بست سنوات .

وقد سمى بذى النورين لأنه تزوج من رقية وأم كلثوم بنتى النبى عليه الصلاة والسلام ، ولم يعلم أحد تزوج بنتى نبى غيره .

وبذلك تكون أم كلثوم بزواجها من عثمان بن عفان قد نجت ، كما نجت أختها ، من حمالة الحطب ، وقد شهدت عودة الرسول منتصراً من بدر .

أما الزهراء فاختار الله لها على بن أبي طالب .

هؤلاء هم أصهار الرسول صلى الله عليه وسلم : أبو العاص بن الربيع ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب . ومما لاشك فيه - كما سنرى فى الكتاب القادم الخاص بالإمام على - أن الإمام علىّ كان أحب شخصيه إلى الرسول ، فهو من هذه الناحية أقرب أصهاره إليه مكاناً وأمسهم رحماً ، فى عروقه يجرى الدم الهاشمى الأصيل ، وعند عبد المطلب يلتقى نسبه بنسب الرسول ، فكلاهما حفيد .

سيدة النساء :

هى السيدة فاطمة[١] الزهراء ولها تسعة أسماء : فاطمة ، والصديقة والمباركة ، والطاهرة ، والزكية ، والراضية ، والمرضية ، والمحدثة ، والزهراء وكان يطلق عليها أم النبى ، أو أم أبيها ، وذلك لأنها كانت أصغر بنات الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولأنها كانت فى البيت وحدها بعد موت السيدة خديجة ، فتولت رعاية الرسول والسهر عليه .

ويقول الأستاذ فاضل الحسينى إنه من الطبيعى أن تكون الزهراء أمًّا للرسول صلى الله عليه وسلم فى رسالته لا فى ولادته . ولعله لأمر قد قُدر كان النبى صلى الله عليه وسلم على علم من أنه سوف لن يعقب إلا من الزهراء ، فستكون هى التيار الذى يحمل نوره عبر أسلاك الزمن ، ولتضاء

---

(١) لم يكن اسم فاطمة غريباً عند العرب ، فقد كانت زوج أبي طالب وأم على تسمى فاطمة . وستكلم عليها فى جزء مقبل ، إن شاء الله .

وفاطمة بنت حمزة ، وهى بنت الشهيد عم النبى صلى الله عليه وسلم وأخوه من الرضاعة ، وتسمى أمامة ، وتكنى أم الفضل ؛ وكان رسول الله يعطف عليها ويبرها ، ويتولى بنفسه أمرها ، لما لها من مكانة ، ولما لأبيها من منزلة ، ولما تقضى بها عاطفة الرحم وآصرة القرابة . وقد زوجها من سلمة بن أبي سلمة ربيب النبى صلى الله عليه وسلم وهما صبيان صغيران — وقد ماتت قبل أن يدخل بها . أما هو فعاش إلى خلافة عبد الملك بن مروان . وقد أهدى رسول الله إلى على حلة استرق ، فقال : اجعلها خمراً بين المواطم . فشقها أربعة أخمرة : خماراً لفاطمة بنت الرسول ، وخماراً لفاطمة بنت أسد ، وخماراً لفاطمة بنت حمزة ، ورابعها لفاطمة بنت عتبة .

وفاطمة بنت عتبة هى أخت هند زوجة أبي سفيان صخر بن حرب ، وخالة معاوية ، وأبوها عتبة سيد من سادات قريش ، وقد تزوجها قرعة بن عبد عمرو بن نوفل ، فولدت له أشهب الذكرين وكرائم الإناث ، وتزوج معاوية من بنته فاختة وغيرهن من المواطم .

البشرية بعد ذلك من هذا النور الفياض . ولذلك كان يحبها حباً جماً ، كما سنرى بعد قليل ، حتى إنه كان يناديها أحياناً بأم أبيها .

إن التاريخ يؤكد حينما ينقل تكراراً على لسان النبي : « فاطمة أم أبيها » ، وحينما نرى أنه كان يعاملها معاملة الأم ، فيقبل يدها ويخصها بالزيارة عند كل عودة منه إلى المدينة إنه اليتم . يجعل الطفل يحن إلى أنثى تحنو عليه بدل أمه ، فقد توفيت « آمنة بنت وهب » أم النبي صلى الله عليه وسلم وهو طفل صغير ، فتعلق قلبه حينذاك بفاطمة بنت أسد ، أم الإمام علي عليه السلام ، لقد كان يناديها : يا أماه . وعندما توفيت حزن عليها حزناً شديداً وسمع يقول : « ماتت أمي » . ورق صلى الله عليه وسلم فاطمة ، وكلما رآها ذكر فاطمة بنت أسد ، وتسلى بابنته عنها ، وقد كنّاها بأم أبيها .

إنه الرسول العبقري ، لا يهب الألقاب عبثاً ، ولا يمنح الكنى تشهياً ، وإنما هي الحكمة تضع الشيء في موضعه . وسيان في هذا للعمود من النور المتطاول برأسه إلى عنان السماء أن تكون فاطمة بنتاً لأبيها وأماً له ، وسيان في دوحة الشرف أصل وفرع ، ما دام الجميع يهب من إشعاعه وتدفقه ما يعجز الغير عن اللحوق به[1] .

١ – فهي فاطمة ، وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة : يافاطمة ، أتدرين لم سميت فاطمه ؟ قال علي : يارسول الله ، لم سميت فاطمة ؟ قال إن الله عز وجل قد فطمها وذريتها من النار يوم القيامة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول

(١) فاطمة الزهراء ، للأستاذ فاضل الحسيني .

الله عليه الصلاة والسلام : إن ابنتي فاطمة حوراء ، إذ لم تحض ولم تطمث ، وإنما سماها فاطمة ، لأن الله عز وجل فطمها ومحبيها من النار. وقال أبو جعفر محمد الباقر رضي الله عنه ، لما ولدت فاطمة عليها السلام ، أوحى الله إلى ملك فانطلق به لسان محمد صلى الله عليه وسلم فسماها فاطمة ، ثم قال إن الله تعالى فطمك عن الطمث .

٢ – ولقبت بالزهراء ، لأنها كانت بيضاء اللون ، وعن جعفر بن محمد بن علي رضي الله عنهم عن أبيه – قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام ، عن فاطمة : لم سميت الزهراء ؟ فقال : لأنها كانت إذا قامت في محرابها يزهو نورها لأهل السماء ، كما يزهو نور الكواكب لأهل الأرض ، وروى أنها عليها السلام سميت الزهراء ، لأن الله عز وجل خلقها من نور عظمته ، وقيل إنه حين وضعتها السيدة خديجة رضي الله عنها حدث في السماء نور زاهر لم تره الملائكة قبل ذلك اليوم ، وبذلك لقبت بالزهراء . وقيل إنها سميت الزهراء ، لأنها كانت لا تحيض ، وكانت إذا ولدت طهرت من نفاسها بعد ساعة حتى لا تفوتها صلاة .

٣ وبالمحدثة لأن ، الملائكة كانت تهبط من السماء فتناديها ، كما كانت تنادي مريم ابنة عمران عليهما السلام ، ويحدثها روح القدس .

٤ - وبالصديقة ، والمباركة ، والطاهرة ، والزكية ، والراضية ، والمرضية ، وهي آيات على ما اتسمت به رضي الله عنها من الصدق والبركة ، والطهارة ، والرضا ، والطمأنينة .

٥ – ولقبت بالبتول[١] ، لانقطاعها عن نساء زمانها فضلا ، وديناً ،

(١) البتل في اللغة التقطع .

وحسباً . وقيل لانقطاعها عن الدنيا إلى الله تعالى . وفى تاج الدروس : لقبت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبتول تشبيهاً لها بمريم فى المنزلة عند الله تعالى .

وقال ثعلب : لانقطاعها عن نساء زمانها ، وعن نساء الأمة فضلاً ، وديناً ، وحسباً وعفافاً . وهى سيدة نساء العالمين .

وقيل البتول من النساء المنقطعة عن الدنيا إلى الله تعالى ، وبه لقبت فاطمة رضى الله عنها . وفى مجمع البحار : وسميت مريم وفاطمة عليهما السلام بالبتول لانقطاعهما عن نساء زمانهما . فضلاودياً ، وعن الدنيا إلى الله تعالى . وعن عمر بن على رضى الله عنهما : أن النبى سئل عن البتول ، وقد قيل له : سمعناك يارسول الله تقول مريم بتول ، وفاطمة بتول : فما ذاك ؟ فقال : « البتول التى لم ترحمرة قط » ، أى لم تحض ، فإن الحيض مكروه فى بنات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وعن أسماء بنت عميس قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كنت شهدت فاطمة قد ولدت بعض ولدها ، فلم أر لها دماً ، وسألته فقال : يا أسماء ؟ إن فاطمة خلقت حورية إنسية ، أما علمت أن فاطمة طاهرة مطهرة ؟

لقد كانت فاطمة إلى جانب إنسانيتها تحمل كل صفات الملائكة وسمات الحور العين كانت إنسانة ، وكانت حوراء .

ولقد قال أبوها العظيم صلى الله عليه وسلم : « خلق الله نور فاطمة قبل أن يخلق الأرض والسماء » – فقال بعض الناس : يانبى الله ، فليست هى إنسية فقال : « فاطمة حوراء إنسية » ومن علامات الحور العين أنها لاتطمث ، فقد قال تعالى : (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ) ،

وكذلك الزهراء فإنها كانت طاهرة من الحيض والنفاس . وقد أجمع المسلمون على أنها لم ترحيضاً ولا نفاساً . وهذه ميزة فريدة امتازت بها على بنات حواء

مولدها :

ولدت السيدة فاطمة رضى الله عنها بمكة يوم الجمعة العشرين من جمادى الآخرة ، وقريش تبنى الكعبة ، وذلك قبل البعثة بخمس سنين(١) ، وهى أصغر بنات الرسول صلى الله عليه وسلم .

دخل العباس رضى الله عنه على علىّ وفاطمة – رضى الله عنهما وأحدهما يقول للآخر : أينا أكبر؟ فقال العباس : ولدتَ يا على قبل بناء قريش البيت بسنوات ، وولدت أنت يافاطمة وقريش تبنى البيت . وكان مولدها بشير سلام وأمن للقرشيين جميعاً لأن مولدها وافق اجتماع قريش لبناء الكعبة ، فجمعت القبائل من قريش الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الحجر الأسود ، فاختصموا فيه ، فقال أبو أمية بن المغيرة ، وكان وقتئذ أسن قريش كلها : « يامعشر

---

(١) قيل إنها ولدت بعد المبعث بسنتين ، قاله الشيخ الطوسى فى مصباح المتهجد قال . وفى رواية أخرى بعد المبعث بخمس ، وقال الكلبى وابن شهر آشوب ولدت بعد المبعث بخمس سنين ، وهو المروى عن الباقر ، وهو المشهور وفى كشف الغمة عن ابن الخشاب فى مواليد ووفيات أهل البيت مرفوعاً عن الباقر أنها ولدت بعد النبوة بخمس سنين ، وقريش تبنى البيت ، ولعله اشتباه من الراوى أو النسخ من النساخ ، فبناء الكعبة كان قبل النبوة لا بعدها ، ويدل عليه ما فى مقاتل الطالبيين أنها ولدت قبل النبوة وقريش تبنى الكعبة وروى الحاكم فى المستدرك وابن عبد البر فى الاستيعاب أنها ولدت سنة وإحدى وأربعين من مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، أى بعد البعثة بسنة وأكثر علماء أهل البيت تروى أنها ولدت قبل البعثة بخمس سنين .

قريش ، اجعلوا بينكم حكماً فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا مسجد ، يقضي بينكم فيه ، ففعلوا ، . وبينما هم فى انتظار أول داخل د لمحوا شاباً ، تام الفتوة ، رزين الحركة ، بهيّ الطلعة ، ذا جد ووقار ، فهتفوا جميعاً وقالوا : « هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد » ، فلما انتهى إليهم عرضوا عليه خلافهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « هلم إليّ ثوباً » ، ثم تناول الحجر ، فوضعه بيده الكريمة فى وسط الثوب ، وقال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً » ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه بيده الكريمة مكانه . وفى هذا يقول الشاعر القرشى هبيرة ابن وهب المخزومى :

تشاجرت الأحياء فى فصل خطة ... جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد مـــودة ... وأوقد ناراً بينهم شرّ موقـــد
فلما رأينا الأمر قد جد جـــده ... ولم يبق منا غير سل المهنّـــد
رضينا وقلنا العدل أول طالـــع ... يجىء من البطحاء من غير موعد
فتاجأنا هذا الأمين محمـــد ... فقلنا ، رضينا بالأمين محمد
خير قريش كلها أمس شيمـــة ... وفى اليوم مع ما يحدث الله فى غد
فجاء بأمر لم ير الناس مثلـــه ... أعمّ وأرضى فى العواقب والبد
أخذنا بأطراف الرداء وكلنـــا ... له حصة من رفعها قبضة اليد
فقل رفعوا حتى إذا ما علـــت به ... أكفهم ، وإنى به غير مسند
وكل رضينا فعله وصنيعـــه ... فأعظم به من رأى هدى ومهتد
وتلك يد منه علينا عظيمـــة ... يروح لها هذا الزمان ويغتدى

فسر لقوم بمكة ، ونسطت الأسارير ، ولاح فى الوجوه الرضا ،

فقد حقن ابن عبد الله بحكمه السديد دماء قريش وأبقى على وحدتها ، فكان فى ربع عبد مناف عتبة بن ربيعة ، وكان فى الربع الثانى زمعة ، وكان فى الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة وكان فى الربع الرابع قيس ابن عدى .

وقرب ولادة السيدة فاطمة رضى الله عنها قال الرسول صلى الله عليه وسلم لسيدة أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها : « ياخديجة هذا جبريل يبشرنى أنها أنثى ، وأنها النسمة الطاهرة الميمونة . وأن الله تعالى سيجعل نسلى منها ، وسيجعل من نسلها أئمة فى الأمة ، ويجعلهم خلفاء فى أرضه ، ووضعت خديجة فاطمة طاهرة مطهرة . فلما سقطت إلى الأرض أشرق منها نور حتى دخل بيوتات مكة ، ولم يبق فى شرق الأرض ولا غربها موضع إلا أشرق فيه ذلك النور ، وما إن عرف الرسول صلى الله عليه وسلم بولادتها حتى سجد شكراً لله تعالى ، وقد ألهم بأنه سيكون منها سلالته وعترته ، فكانت أحب ولده إليه ، وأقربهم لعينه . تقول أم سلمة : تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبض أمر بنته إلىّ ، فكنت أودها وأدلها ، وكانت والله أدب منى ، وأعرف بالأشياء كلها .

نشأتها :

نشأت فى بيت النبوة والرسالة ، فأدبت بآداب أبيها ، فكانت المثل الأعلى فى الخلق الكريم والطبع السليم ، وقد عنى بها الرسول عناية تامة ، وكان يثقفها ثقافة دينية ، ويروضها على الهدى النبوى والصراط المستقيم .

وعن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه ، قال : لما جاءت فاطمة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أمرها أعطاها كربة (وهى أصل السعفة العريض الغليظ) كانوا يكتبون عليها ، فقال تعلمى ما فيها ، فإذا فيها : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً أو ليسكت » .

وكانت فاطمة ، رضى الله عنها ، فى نشأتها مضرب المثل فى الكمال والجلال ، فهى رضى الله عنها تمثل أشرف ما فى المرأة من إنسانية ، وصيانة ، وكرامة ، وقداسة ، ورعاية ، وعناية ، إلى ما كانت عليه من ذكاء وقّاد ، وفطنة حادة ، وعلم واسع . وكفاها فخراً أنها تربّت فى مدرسة النبوة ، وتخرّجت فى معهد الرسالة ، وتلقّت عن أبيها الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم ما تلقاه عن رب العالمين ، ومما لاشك فيه أنها تعلمت فى دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها فى مكة .

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنات فى حاضرة الجزيرة العربية ، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك أنها كانت تضمد جرح أبيها فى غزوة أحد ، وأنها كانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ، ولا يعينها أحد من لساء فى أكثر أيامها .

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها ، فلم تعرض قط لشىء غير شأنها ، وشأن بيتها ، ولم تتحدث قط فى غير ما تسأل عنه أو يلجئها إليه حادث لا ملجأ منه ، فلا فضول هنالك فى عمل ولا فى مقال

وسواء صح ما جاء فى الأنباء عن محاجتها للصديق بالقرآن الكريم ، أو كان فيه مجال للمراجعة ، فالصحيح الذى لا مراجعة فيه أنها سمعت القرآن الكريم من النبى ، وسمعته من علىّ ، وأنها صلت به ، ووعت أحكام فرائضه ، وأنها وعت كل ماوعته فتاة عربية ، أصيلة العرق والنسب ، وزادت عليه مالا يعيه غيرها من الأصيلات المعروفات .

لقد نشأت نشأة جد واعتكاف ، نشأة وفاء واكتفاء ، وعلمت مع السنين أنها سليلة شرف لامنازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراهنّ ، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذى لا يدانى ، وشبت بين انطوائها على نفسها ، واكتفائها بشرفها ، كأنها فى عزلة بين أبناء آدم وحواء .

سكنت هذه النفس القوية جثماناً يضيق بقوتها ، وقلما رزق الراحة من اجتمع له النفس القوية ، والجثمان الضعيف ، فإنهما مزيج متعب للنفس والجسم معاً ، لا قوام له بغير راحة واحدة هى راحة الإيمان ، وهذا هو التوفيق الأكبر فى نشأة الزهراء ، فإنها نشأت فى عهد الإيمان ، ودرجت فى دار أبويها ، والدار يومئذ مقبلة على أمر جلل لم تتجمع بوادره فى غير تلك الدار وغار حراء .

السيدة فاطمة تشبه الرسول :

روى الحاكم فى المستدرك بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : سألت أمى عن صفة فاطمة ، رضى الله عنها ، فقالت : كانت أشد الناس شبهاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيضاء ، مشربة بحمرة ، لها شعر أسود يتعفرها . ويقول الشاعر فى هذا :

بيضاء تسحب من قيام شعـــرها وتغيب فيه وهو داج أسحم
فكـــأنها فيـــه نهار مشرق وكأنه ليل عليهـــا مظلم

وفى كشف الغمة عن أم المؤمنين ، أم سلمة ، رضى الله عنها ، قالت : كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه الناس وجهاً برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : « ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة ، وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ، ورحب بها ، وأجلسها فى مجلسه ، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ، ورحبت به ، وأخذت بيده فقبلتها » .

وعن أنس بن مالك ، عن أمه ، أن السيدة فاطمة كانت كأنها القمر ليلة البدر .

وعندما وضعتها السيدة خديجة ، ورأت فى وليدتها فاطمة الزهراء أنها صورة من أبيها العظيم ، سرها ذلك الشبه ، ورأته بركة من بركات الله عليها وعلى آل البيت الكرام .

وفى كشف الغمة أن بعض الوعاظ ذكر فاطمة ، وما وهبها الله تعالى من المزايا والفضائل ، فقيل فى ذلك :

خجلا من نور بهجتهـــا تتوارى الشمس بالشفق
وحيـــــاء من شمائلهـا يتغطى الغصن بالورق

وكل هذا يدفع ما ذهب إليه بعض المستشرقين ، فإن « لامنس » فى كتابه عنها ينكر عليها جمال وجهها ، وحسن قوامها ، ويعلل ضلاله هذا بتأخر

زواجها . وهذا رأى باطل ، لأن السيدات اللواتي لايبكرن إلى الزواج فى المجتمع الإسلامى إنما هن من اللواتى يتنعمن بالجمال الرائع ، والحذق البارع ، والذكاء الفارع ، وشرف المحتد ، وشغف الوالدين بهن والضن بهن .

وما ذهب إليه لامنس إنما هو أثر مما لمسه من مشاركة النصارى الذين عاش بينهم . وبين عادات هؤلاء والعادات الإسلامية بون شاسع . ومن الحق أن نقول : إن تأخر زواج فاطمة إذا كان هناك تأخير ، لأنها تزوجت فى سن الثامنة عشرة ، وهى سن مناسبة - يعود إلى شغف النبى صلى الله عليه وسلم بها ، وحبه إياها ، إلى قيامها فى بيت والدها صلى الله عليه وسلم مقام والدتها زوجه السيدة خديجة الكبرى ، رضى الله عنها ، تعنى بحاجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتعمل على أن تتوافر له راحته الأسرية .

وتقول السيدة الدكتورة بنت الشاطئ عندما تزوجت الزهراء كانت بنت ثمانية عشر عاماً . ولكن الهوى جمح بالمستشرق لامنس فخيل إليه أنها كانت أسن من ذلك كثيراً ، وإنما عمد بعض كتّاب السيرة إلى تأخير ميلادها كيلا يقال إنها ظلت مزهودا فيها مرغوبا عنها إلى أن فاتت سن الشباب . ولعلنا لو سألناه : لِمَ لَمْ يفعل كتّاب السيرة مثل هذا مع خديجة وعائشة ؟ لِمَ لَمْ يجعلوا الأولى أصغر سناً ، ويضيفوا إلى الأخرى عشر سنين أو عشرين ، ليلائموا بينهما وبين زوجهما النبى فى السن ؟ أقول لعلنا لو سألنا لامنس مثل هذا السؤال لما حار جواباً ، ولامنس قد اعتمد فى ذلك على خلاف يسير الشأن فى تاريخ مولد الزهراء فاستغله إلى أبعد حد فى إرضاء حقده ، وبدلا من أن يزن الروايات المختلفة ، ويعرضها

على مقاييس النقد والتقويم ، نراه يضع أصبعه على قول نقله « المسعودى » لولادة الزهراء قبل الهجرة بثمانية أعوام فحسب ، وآخر ذكره اليعقوبي بأنها ولدت بعد نزول الوحى ، يضع لامنس أصبعه على هذا القول أو ذاك ، ثم يصوب الطعنة المسمومة متجاهلا أقوال الكثرة من الثقاة الذين عليهم المعتمد فى هذا الشأن ، كابن إسحاق وابن هشام والطبرى ، وهم يكادون يجمعون على أن مولدها كان قبل البعثة بخمس سنين .

obeikandl.com

السيدة فاطمة من أهل البيت

يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم فى سورة الأحزاب :
(يا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً . وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً . وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً) .

وفى تفسير الآية الكريمة : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) .

يقول الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى : يقول الله تعالى إنما يريد الله ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل محمد ، ويطهركم من الدنس الذى يكون فى معاصى الله تطهيراً .

وذكر – أى الطبرى – بسنده إلى سعيد بن قتادة أنه قال : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ، فهم أهل بيت طهرهم الله من السوء ، وخصّهم برحمة منه . وقال ابن عطية : والرجس اسم يقع على الإثم والعذاب وعلى النجاسات والنقائص ، فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت . وقال الإمام النووى : قيل هو الشك ، وقيل العذاب ، وقيل الإثم .

واختلف المفسرون فيمن هم أهل البيت :

١ - عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما : قد اختلف فى أهل البيت ، فقيل نساؤه لأنهن فى بيته ، وكذلك قال عكرمة وابن السائب ومقاتل ، ويقول الزمخشرى : إن نساء النبى صلى الله عليه وسلم من أهل بيته .

٢ – أما الفخر الرازى فى تفسيره (حـ ٦ ص ٧٨٣) ، والزمخشرى فى كشافه والقرطبى فى تفسيره ، وفتح القدير لمحمد بن على بن محمد الشوكانى الذى استعرض آراء المفسرين ، والطبرى فى تفسير الآية الكريمة (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس . . .) والسيوطى فى الدّر المنثور فى الجزء الخامس ص ١٦٩ ، وابن حجر العسقلانى فى ص ٤٠٧ من الجزء الرابع من الإصابة ، والحاكم فى المستدرك ، والذهبى فى تلخيصه ص ١٤٦ من الجزء الثالث ، والإمام أحمد بن حنبل فى الجزء الثالث ص ٢٥٩ فقد قالوا جميعاً إن أهل البيت هم علىّ والسيدة فاطمة الزهراء والحسن والحسين ، رضى الله عنهم .

ووجه اختصاص الإمام على رضى الله عنه والسيدة فاطمة الزهراء والحسن والحسين بعبارة « أهل البيت » أن أبا سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نزلت هذه الآية فى خمسة : فىّ وفى على والحسن والحسين وفاطمة » رضى الله عنهم جميعاً . وعن أم سلمة قالت : فى بيتى نزلت : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) ، وفى البيت فاطمة وعلىّ والحسن والحسين – فجللهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكساء كان عليه ثم قال : « هؤلاء أهل بيتى ، فأذهب الرجس وطهرهم

تطهيرا » . وعن أم سلمة أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في بيتها على مقامة له عليه كساء خيبري ، فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ادعي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً » ، فدعتهم ، فبينما هم يأكلون إذ نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم فضلة كسائه فغشاهم إياها ، ثم أخرج يده من الكساء وألوى بها إلى السماء ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » . قالها ثلاث مرات — قالت أم سلمة فأدخلت رأسي في الستر ، فقلت : يارسول الله وأنا معكم ، فقال : « إنك إلى خير[1] » .

وأخرج ابن جرير وابن دوية عن أبي الحمراء قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية أشهر بالمدينة ، ليس من مرة يخرج إلى صلاة الغد إلا أتى باب عليّ ، فوضع يده على جنبي الباب ، ثم قال :

---

(١) ذكر المقريزي رواية عن أم سلمة — قلت : وأنا منهم قال : نعم ، فقد تكون هذه الرواية مع سياق الآية ولاحقها يدل على دخول الزوجات الطاهرات في المراد فيها وحيث تكون شاملة للفريقين كما هو مذهب فريق الثالث من المفسرين ، كما هو مبين في المذهب الثالث على أن « يوسف النبهاني » في كتابه « الشرف المؤبد لآل محمد » يقول : « لو نظرنا إلى سياق الآية ولاحقها من قوله تعالى : (قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا) إلى قوله : (واذكرن ما يتلى في بيوتكن) لوجدنا ضمير جمع المؤنث مذكوراً في اثنين وعشرين موضعاً ، عشرين قبلها واثنين بعدها ، ولم يأت ضمير جمع المذكور إلا في عنكم ويطهركم ، فلو كان المراد أزواجه صلى الله عليه وسلم خاصة لكان إتباع هذين الضميرين للاثنين وعشرين ضميراً أولى وأحرى ، ليكون الكلام على نسق واحد ، فلم تحصل المخالفة فيهما إلا لمخالفة المراد منها للمراد مما قبلهما وبعدهما ، ويكون ذلك بشمولهما مع الزوجات الطاهرات ، ما أفصح الحديث بدخولهم وهم أهل العباء !

الصلاة الصلاة (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)،

وكذلك روى أنس بن مالك : قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج لصلاة الفجر ويقول : « الصلاة يا أهل البيت » .

٣ – والفريق الثالث من المفسرين جعل الآية شاملة للزوجات ولعلى وفاطمة والحسن والحسين .

أما الزوجات فلكونهن المراد فى سياق هذه الآيات ، ولكونهن الساكنات فى بيوته صلى الله عليه وسلم ، النازلات فى منازله . ويؤيد ذلك ماتقدم عن ابن عباس وغيره . وأما دخول على وفاطمة والحسن والحسين فلكونهم قرابته وأهل بيته فى النسب ، ويؤيد ذلك ماذكرناه آنفاً ، وما روى عن أم سلمة رضى الله عنها ، بأنهم سبب النزول . وهى أحاديث كثيرة ، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين فقد أعمل بعض مايجب إعماله وأهمل مالا يجوز إهماله . وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي وابن كثير والطبرى وغيرهم .

٤ – والفريق الرابع من المفسرين يقول : هم بنو هاشم . فعن زيد ابن أرقم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أذكركم الله فى أهل بيتى » ؟ ثلاثاً . فقيل لزيد : من أهل البيت ؟ قال : « أهل البيت من حرم الصدقة بعده » . وقيل : من هم ؟ قال : آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس ؛ فهؤلاء ذهبوا إلى أن المراد بالبيت بيت النسب .

وأخيراً يسلم ابن تيمية أن المختص بأهل البيت هم الأربعة على وفاطمة والحسن والحسين .

حديث الثقلين[١] :

عن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنا تارك فيكم ثقلين ، أولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغّب فيه ، ثم قال : وأهل بيتي -- أذكركم الله في أهل بيتي . أذكركم الله في أهل بيتي . أذكركم الله في أهل بيتي » . وسئل زيد : مَن أهل بيته ؟ - قال : هم من حرم الصدقة بعده ، وهم آل علي ، وآل عقيل ، وآل جعفر وآل عباس .

وفي رواية لمسلم : فقلنا : من أهل بيته نساؤه ؟ قال : لا ، لأن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها . أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده . وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إني تارك فيكم الثقلين - وفي رواية خليفتين - أحدهما أكبر من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء

---

(١) أحاديث الثقلين رواها أجلاء علماء أهل السنة وأكابر محدثيهم في صحاحهم بأسانيدهم المتعددة ، واتفق على روايتها الفريقان ، فرواها مسلم والترمذي في صحيحهما ، والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ، والثعلبي في تفسيره ، وابن المغازلي الشافعي في المناقب ، وصاحب الجمع بين الصحاح الستة ، والحميدي من أفراد مسلم ، والسمعاني في فضائل الصحابة موفق بن أحمد ، والطبراني ، وابن حجر في صواعقه ، وغيرهم . ورويت من طريق أهل البيت باثنين وثمانين طريقاً ، وفي العقد الفريد لابن عبد ربه القرطبي ، وذخائر العقبى لأحمد بن عبد الله الطبري ، وتفسير الخازن في آية الاعتصام ، وتفسير ابن كثير في آية المودة ، وفي تفسير آية التطهير ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، وفي الحلية لأبي نعيم الأصفهاني ، وأسد الغابة لابن الأثير ، ولسان العرب لجمال الدين الإفريقي والدر المنثور للسيوطي .

إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض » .

وفي رواية : أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، فانظروا بم تخلفوني فيهما . وفي رواية أخرى : إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي : الثقلين ، أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض .

وفي رواية أخرى : إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن تبعتموهما وهما كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، فلا تتقدموهما فتهلكوا ، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ، ولاتعلموهم فإنهم أعلى منكم . فقد يكون هذا صريحاً في خروج النساء من أهل البيت واختصاصهم بعشيرته وعصبه ؛ وهو رأينا الذي انتهينا إليه في ختام هذا البحث ، والله أعلم .

وحديث الثقلين من أوثق الأحاديث النبوية ، وأكثرها ذيوعاً ، وقد اهتمّ العلماء به اهتماماً بالغاً ، لأنه يحمل جانباً مهماً من جوانب العقيدة الإسلامية ، كما أنه من أظهر الأدلة التي تستند إليها الشيعة في حصر الإمامة في أهل البيت ، وفي عصمتهم من الأخطاء والأهواء . إن النبي صلى الله عليه وسلم قرنهم بكتاب الله العزيز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا يفترق أحدهما عن الآخر . ومن الطبيعي أن صدور أية مخالفة لأحكام الدين تعد افتراقاً عن الكتاب العزيز . وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بعدم افتراقهما حتى يردا على الحوض ، فدلالته على العصمة ظاهرة جلية . وقد كرر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث في مواقف كثيرة ، لأنه يهدف إلى صيانة الأمة والمحافظة على استقامتها .

وعدم انحرافها فى المجالات العقائدية وغيرها . إن تمسكت بأهل البيت ولم تتقدم عليهم ، ولم تتأخر عنهم .

ولو كان الخطأ يقع منهم لما صح الأمر بالتمسك بهم الذى هو جعل أقوالهم وأفعالهم حجة ، وأن المتمسك بهم لا يضل ، كما لايضل المتمسك بالقرآن ، ولو وقع منهم الذنب أو الخطأ لكان المتمسك بهم يضل ، وفى اتباعهم الهدى والنور كما فى القرآن ، ولو لم يكونوا معصومين لكان فى اتباعهم الضلال ، وأنهم حبل ممدود من السماء إلى الأرض كالقرآن ، وهو كناية عن أنهم واسطة بين الله تعالى وبين خلقه ، وأن أقوالهم عن الله تعالى ، ولو لم يكونوا معصومين لم يكونوا كذلك ، وأنهم لم يفارقوا القرآن ، ولن يفارقهم مدة عمر الدنيا ، ولو أخطأوا أو أذنبوا لفارقوا القرآن وفارقهم ، وأنهم لاتجوز مفارقتهم أو التقدم عليهم بجعل نفسه إماماً لهم ، أو التقصير عنهم ، والائتمام بغيرهم ، كما لايجوز التقدم على القرآن بالإفتاء بغير مافيه ، أو التقصير عنه باتباع أقوال مخالفيه ، كما لا يجوز تعليمهم ، ورد أقوالهم ، ولو كانوا يجهلون شيئاً لوجب تعليمهم ولم ينه عن رد قولهم .

وقد دلت هذه الأحاديث أيضاً على أن منهم من هذه صفته فى كل عصر وزمان ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : إنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، وإن اللطيف الخبير أخبره بذلك ، وورود الحوض كناية عن انقضاء عمر الدنيا ، فلو خلا زمان من أحدهما لم يصدق أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض .

والذين يقصرون عبارة أهل البيت على الأئمة الاثنى عشر وأمهم الزهراء يتحدون هذا الحديث سنداً يرجحون به رأيهم قائلين : إنه لا يمكن أن يراد

بأهل البيت جميع بنى هاشم ، بل هو من العام المخصوص بمن ثبت اختصاصهم بالفضل ، والعلم ، والزهد ، والعفة ، والنزاهة ، من أئمة أهل البيت الطاهر ، وهم الأئمة الاثنا عشر وأمهم الزهراء البتول ، ويدللون على ذلك بالإجماع على عدم عصمة من عداهم : لأن غيرهم من بنى هاشم يذنبون ويخطئون ، ويجهلون كثيراً من الأحكام . ولا يمتازون من غيرهم . فلا يصح أن يكونوا شركاء القرآن فى الأمور المذكورة ، وإنما يتعين أن يكون أهل البيت بعض بنى هاشم لا كلهم ، وهم الأئمة وأمهم ، رضى الله عنهم .

خصائصها ومناقبها وفضائلها :

١ - قول الرسول صلى الله عليه وسلم إنها بضعة منى أو شجنة منى :

روى البخارى فى صحيحه وبسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فاطمة بضعة منى فمن أغضبها أغضبنى » ، وروى مسلم فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما فاطمة بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها » ، وفى الإصابة عن الصحيحين عن المسور بن مخرمة سمعت رسول الله على المنبر يقول : « فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها ، ويريبنى ما رابها » ، وعن صحيح الترمذى : « إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها وينصبنى ما أنصبها » .

وعن المسور : أنه بعث إليه الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على يخطب ابنته ، فقال ما من نسب ولا سبب أحب إلى من نسبكم وسببكم وصهركم ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فاطمة بضعة منى

يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها » ، وإن الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسبي وسببي وصهري ، وعندك ابنتها ، ولو زوجتك لقبضها منك ، فانطلق عاذراً له .

وروى أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني أن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط دخل على عمر بن عبد العزيز ، وهو حديث السن وله وقار وتمكين ، فرفع عمر مجلسه وأكرمه وقضى حوائجه ، فسئل عمر عن ذلك فقال : إن الثقة حدثني كأني أسمع من في رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إنما فاطمة بضعة مني يسرني ما يسرها ويغضبني ما يغضبها ، فعبد الله بضعة من بضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ - إن الله يغضب لغضبها ويرضى لرضاها :

عن ابن سعد في شرف النبوة عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يافاطمة إن الله عز وجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك » ، وفي هذا يقول أستاذنا أحمد فهمي محمد :

فاقت نساء العالمين وإنها يوم القيامة تزدهي بنساء
والله يغضب حين تغضب فاطم والله يرضى في مقام رضاء

٣ - شدة حب النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة :

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي ثعلبة الخشني قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا رجع من سفر أو غزاة أتى المسجد فصلى فيه ركعتين ثم ثنى بفاطمة ، ثم يأتي أزواجه » . وبسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر كان آخر الناس عهداً به فاطمة ، وإذا قدم من سفر كان أول الناس

به عهداً فاطمة رضى الله تعالى عنها ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يحنو على الزهراء لضعفها وحزنها ، ولا يصبر على فراقها ، فلما تحولت عن داره بعد زواجها لم تمض أيام حتى ذهب إليها فقال لها : « إنى أريد أن أحولك إلى » ، فقالت : فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى - قال رسول الله : قدتحول حارثة بن النعمان عنا حتى استحيت منه . فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبى فقال : يارسول الله إنه بلغنى أنك تحول فاطمة إليك ، وهذه منازلى ، وهى أسبق بيوت بنى النجار لك ، وإنما أنا ومالى لله ولرسوله . والله يارسول الله للمال الذى تأخذ منى أحب إلى من الذى تدع . فقال رسول الله : صدقت . بارك الله عليك . فحولها رسول الله إلى بيت حارثة .

جاء فى كتاب السمهودى عن أخبار دار المصطفى « أن بيت فاطمة رضى الله عنها فى الزور الذى فى القبر ، بينه وبين بيت النبى صلى الله عليه وسلم خوخة . . وكانت فيه كوة إلى بيت عائشة رضى الله عنها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرهم ، وأن فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى إن ابنى أمسيا عليلين ، فلو نظرت لنا أدماً نستصبح به . فخرج على إلى السوق فاشترى لهم أدماً ، وجاء به إلى فاطمة فأستصبحت فأبصرت عائشة المصباح عندهم فى جوف الليل - وذكر كلاماً وقع بينهما ، فلما أصبحوا سألت فاطمة النبى صلى الله عليه وسلم أن يسد الكوة فسدها » .

ولقد سأل على بن أبي طالب رسول الله يوماً فقال : « يارسول الله أينا أحب إليك أنا أم فاطمة ؟ » فقال عليه الصلاة والسلام : « أنت

أعز على منها ، وهى أحب إلى منك ،

٤ – فاطمة أحب النساء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفى الاستيعاب : سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها أى الناس كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : فاطمة . قيل : فمن الرجال ؟ قالت : زوجها . إن كان ما علمته صوّاماً قواماً . وروى الحاكم فى المستدرك ، وصححه بسنده عن جميع ابن عمير ، قال : دخلت مع أمى على عائشة ، فسمعتها من وراء الحجاب وهى تسألها عن على ، فقالت : تسألينى عن رجل والله ما أعلم رجلا كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من على ، ولا فى الأرض امرأة كانت أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة .

وعن عائشة رضى الله عنهما قالت : قلت : يارسول الله ، ما لك إذا قبلت فاطمة جعلت لسانك فى فيها كأنك تريد أن تلعقها عسلا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إنه لما أسرى بى أدخلنى جبريل الجنة فناولنى تفاحة فأكلتها ، فكلما اشتقت إلى تلك التفاحة قبلت فاطمة فأصبت من رائحتها رائحة تلك التفاحة وفى رواية : فناولنى منها تفاحة فأكلتها فتحول ذلك نطفة فى صلبى فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة ، ففاطمة حوراء إنسية ، فكلما اشتقت إلى رائحة الجنة شممت رائحة ابنتى وفى ذلك يقول الشاعر :

المصطفى جبريـــل أطعمـــه تفاحة فى ليلـــة الإسرا
فتكونت منها لذاك غـــــدت بين الورى إنسية حـــورا

٥ - هي أصدق الناس لهجة :

عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة من فاطمة إلا أن يكون الذى ولدها صلى الله عليه وسلم .

٦ - طهارتها من حيض الآدميات :

عن أسماء رضى الله عنها قالت : قبلت أى ولدت فاطمة بالحسن فلم أر لها دماً ، فقلت : يارسول الله ، إني لم أر لها دماً فى حيض ولا نفاس ، فقال صلى الله عليه وسلم : أما علمت أن ابنتى طاهرة مطهرة لايرى لها دم فى طمث ولا ولادة .

٧ - تحريم ذريتها على النار :

عن عبد الله ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن فاطمة حصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار » .

٨ - ما ظهر لها من الكرامة على الله عز وجل ، وأنها أعز الناس على أبيها صلى الله عليه وسلم ، ومغفرة الله لها ، وإجراؤها فى مجرى مريم ابنة عمران .

عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سأل على فاطمة ذات يوم : هل عندك شيء تغذينيه ؟ قالت : لا ، والذى أكرم أبي بالنبوة ما أصبح عندى شيء أعديكه ، ولا أكلنا بعدُ شيئاً ، ولا كان لنا شيء بعدك منذ يومين أوثرك به على بطنى ، وعلى ابنى هذين ، قال : يافاطمة ، ألا أعلمتنى حتى أبغيكم شيئاً ، قالت : إني أستحى من الله أن أكلفك ما لا تقدر عليه . فخرج من عندها واثقاً بالله تعالى ، حسن الظن به ، فاستقرض ديناراً ، فبينما الدينار فى يده أراد أن يبتاع لهم ما يصلح لهم ، إذ عرض له المقداد فى يوم شديد الحر ، قد لوحته الشمس من فوقه .

وآذته من تحته ، فلما رآه أنكره ، فقال : يامقداد ، ما أزعجك من رحلك هذه الساعة قال : يا أبا الحسن ، خلِّ سبيلي ، ولا تسألني عما ورائي ، قال : يابن أخي ، إنه لايحل لك أن تكتمني حالك قال أما إذ أبيت فو الذي أكرم محمداً بالنبوة ما أزعجني من رحلي إلا الجهد ، ولقد تركت أهلي يبكون جوعاً ، فلما سمعت بكاء العيال لم تحملني الأرض ، فخرجت مغموماً راكباً رأسي ، فهذه حالتي وقصتي ، فهملت عينا عليّ بالبكاء ، حتى بلت دموعه لحيته ، ثم قال : أحلف بالذي حلفت به ما أزعجني غير الذي أزعجك ، ولقد اقترضت ديناراً فهاك ، وأوثرك به على نفسي . فدفع له الدينار ورجع حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ، فصلى الظهر والعصر والمغرب ، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة المغرب مر بعلي في الصف الأول ، فغمزه برجله ، فسار خلف النبي صلى الله عليه وسلم حتى لحقه عند باب المسجد ، ثم قال : يا أبا الحسن ، هل عندك شئ تعشينا به ؟ فأطرق على لايحير جواباً حياءً من النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد عرف الحال التي خرج عليها ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إما أن تقول لا فننصرف عنك ، أو نعم فنجيء معك ، فقال له : حبّاً وتكريماً ، اذهب بنا ، وكأن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أنْ تعشَّ عندهم ، فأخذ الرسول بيده فانطلقا حتى دخلا على فاطمة عليها السلام في مصلاها ، وخلفها جفنة تفور دخاناً ، فلما سمعت كلام النبي صلى الله عليه وسلم خرجت من المصلى فسلمت عليه ، وكانت أعز الناس عليه ، فرد عليها السلام ، ومسح بيده على رأسها ، وقال : كيف أمسيت ؟ عشيا ، غفر الله لك ،

وقد فعل فأخذت الجفنة فوضعتها بين يديه ، فلما نظر على ذلك وشم ريحه ، رمى فاطمة ببصره رمياً شميماً ، فقالت : ما أشح نظرك وأشده ! سبحان الله ! هل أذنبت فيما بيني وبينك ما أستوجب به السخطة ؟ قال : وأى ذنب أعظم من ذنب أصبته اليوم ؟ ! أليس عهدى بك اليوم وأنت تحلفين بالله مجتهدة ماطعمت طعاماً يومين ؟ ! فنظرت إلى السماء فقالت : إلهى يعلم ما فى سمائه ، ويعلم ما فى أرضه . إنى لم أقل إلا حقاً . قال . فأنى لك هذا الذى لم أر مثله ، ولم أشم رائحته ، ولم آكل أطيب منه ؟ ! فوضع الرسول صلى الله عليه وسلم كفَّه المباركة بين كتفى على ، ثم هزّه وقال : « يا علىّ ، هذا ثواب الدينار ، وهذا جزاء الدينار ، هذا من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب » ، ثم استعبر النبى صلى الله عليه وسلم باكياً وقال : الحمد لله الذى لم يخرجكما من الدنيا حتى يجريك يا علىّ فى المجرى الذى فيه زكريا ، ويجريك يافاطمة فى المجرى الذى أجرى فيه مريم ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أنى لك هذا ؟ ! »

الرسول والسيدة الزهراء :

خصت السيدة الزهراء من أبيها صلى الله عليه وسلم بأحاديث تدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يخصها بمحبته ، ويصفيها مودته ، وأن لها موضعاً من نفسه ، ومكاناً من قلبه ، ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم لو خير أى بناته تكون وعاءً لنسله الطهور لاختار ما اختاره الله . لقد كانت خير بنت لأبيها ، كما كانت خير زوجة لزوجها ، وخير أم لأولادها .

١ – عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال صلى الله عليه وسلم : خلق الناس من أشجار شتى ، وخلقت أنا وعلى بن أبي طالب من شجرة واحدة ، فما قولكم فى شجرة أنا أصلها ، وفاطمة فرعها وعلى لقاحها ، والحسن والحسين ثمارها ، وشيعتنا أوراقها ؟ ! فمن تعلق بغصن من أغصانها ساقه إلى الجنة ، ومن تركها هوى إلى النار .

٢ – وعن ابن عباس أيضاً قال صلى الله عليه وسلم : ياعلى ، إن فاطمة بضعة منى ، هى نور عينى ، وثمرة فؤادى ، يسوؤنى ماساءها ، ويسرنى ما سرها ، وإنها أول من يلحقنى من أهل بيتى ، فأحسن إليها من بعدى ، والحسن والحسين فهما ابناى وريحانتاى وهما سيدا شباب أهل الجنة ، فليكونا عليك كسمعك وبصرك . ثم رفع صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء فقال : اللهم إنى أشهدك أنى محب لمن أحبهم ، مبغض لمن أبغضهم ، سلم لمن سالمهم ، حرب لمن حاربهم ، عدو لمن عاداهم ، ولىّ لمن والاهم .

٣ - وعنه أيضاً ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً ذات يوم ، وعنده علىّ وفاطمة والحسن والحسين فقال : اللهم إنك تعلم أن هؤلاء أهل بيتى ، وأكرم الناس علىّ ، فأحب من يحبهم ، وأبغض من يبغضهم ، ووالِ من والاهم ، وعادِ من عاداهم ، وأعِنْ من أعانهم ، واجعلهم مطهرين من كل رجس ، معصومين من كل ذنب ، وأيدهم بروح القدس منك .

٤ وعنه أيضاً ، قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبلت فاطمة وهى تبكى ، فقال : ما يبكيك يا فاطمة ، قالت :

يارسول الله ، عيرتني نساء قريش آنفاً ، زعمن أنك زوجتني رجلا معدماً لامال له . قال : لاتبكي يافاطمة ، فوالله ما زوجتك حتى زوجك الله تعالى من فوق عرشه ، وأشهد على ذلك جبريل وميكائيل .

٥ وقال علي رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يافاطمة إن الله عزوجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك .

٦ - وعنه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة : إني وإياك وهذين (يعني حسناً وحسيناً) وهذا الراقد (يعني عليًّا) في مكان واحد يوم القيامة .

٧ وروى الترمذي وغيره عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أحبُّ أهلي إليّ فاطمة .

٨ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا وفاطمة وعلي والحسن والحسين في حظيرة القدس ، في قبة بيضاء ، وهي قبة المجد ، وشيعتنا عن يمين الرحمن تبارك وتعالى .

٩ وعن مجاهد رضي الله عنه ، قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو آخذ بيد فاطمة ، فقال : من عرف هذه فقد عرفها ، ومن لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد ، وهي بضعة مني ، وهي قلبي ، وروحي التي بين جنبي ، فمن آذاها فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى .

١٠ - وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، ثم ينادي مناد من بطنان العرش : إن الجليل جل جلاله يقول : نكِّسوا رءوسكم ، وغضُّوا أبصاركم ، فإن هذه فاطمة

بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تريد أن تمر على الصراط . فتمر ومعها سبعون ألفاً من الحور العين .

١١ – عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ملكاً من السماء لم يكن زارني ، فاستأذن ربي في زيارتي ، فبشرني وأخبرني أن فاطمة سيدة نساء أمتي .

الرسول يضرب بفاطمة المثل :

عندما نزلت الآية الكريمة : (وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) نادى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : يامعشر قريش اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يابنى عبد مناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً : ياعباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً ، وياصفية بنت عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويافاطمة بنت محمد ، سليني ماشئت من مالى ، لاأغنى عنك من الله شيئاً .

وخفق قلب فاطمة حناناً وتأثراً ، فهمست تقول : لبيك يا أحب والد وأكرم داع . ثم جمعت نفسها ، وسارت بين الناس بهيكلها الصغير اللطيف مرفوعة الهامة ، مشرقة الأسارير ، وكأنما ازدهاها أن يختارها أبوها النبي من بين أخواتها جميعاً ، بل من بين أهل بيته الخاص ، ليؤكد للبشر أنه لا يغنى من الله شيئاً عن أعز الناس عنده ، وأحبهم إليه ، وأدناهم منه . لقد بدأ بقريش قومه وقبيلته ، ثم ببنى عبد مناف عشيرته الأقربين ، عمه العباس ، وعمته صفية ، ثم كانت ابنته فاطمة هى آخر من يتخذه الرسول مثلا فى ذلك الموقف الجليل ، فعندها إذن ينتهى أقصى ما يبلغه صلى

الله عليه وسلم فى العظة والاعتبار . وإذا كان محمد لا يغنى عن بنته فاطمة من الله شيئاً فهل يطمع غيرها ، كائناً من كان فى أن يغنى عنه أحد من الله شيئاً[١] .

وليست هذه هى المرة الوحيدة التى يضرب النبى فيها المثل بابنته فاطمة تأكيداً لما يريد نشره فى أمته من الحق ، فلقد حدثوا أن امرأة من قريش سرقت ، بعد أن أسلمت ، وبلغ الرسول أمرها ، فأشفقت قريش أن تقطع يدها ، فاستشفعوا لها عند الرسول حتى جاءوا أسامة بن زيد ليشفع فيها ، وكان الرسول يشفعه ، فلما فعل قال صلى الله عليه وسلم : « لاتكلمنى يا أسامة فإن الحدود إذا انتهت إلى فليس لها ، ولو كانت بنت محمد فاطمة لقطعت يدها »[٢]

زوجها :

على بن أبى طالب الذى ولد بمكة ، داخل البيت الحرام ، فى يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل ، قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة . ولم يولد قبله ولا بعده مولود فى بيت الله سواه ، وقد كرم الله وجهه عن السجود للأصنام وتربى عند النبى صلى الله عليه وسلم .

أسلم على يد الرسول صبيًّا قبل أن تمس قلبه عقيدة سابقة . والإجماع

---

(١) بنات النبى : للدكتورة بنت الشاطئ

(٢) الإصابة

على أن علياً كان أول من آمن(١) من الأحداث الذين لم يبلغوا الحلم . ويقول ابن عباس : « لعلي أربع خصال ليست لأحد غيره ، هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف ، وهو الذي صبر معه يوم فرّ غيره ، وهو الذي غسله وأدخله قبره » .

أما أمه فهي فاطمة بنت أسد ، وهي أول هاشمية ولدت حفيفة ، وهي أم سائر ولد أبي طالب ، وكان علي أصغر بنيها . وكانت في مقدمة النساء اللائي بايعن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد سارت سيرة خديجة رضي الله عنها . وكانت تعطف على زوج ولدها (السيدة فاطمة الزهراء) عطف الأمهات على أفلاذ أكبادهن ، وكانت تعاونها في عملها ، وتساعدها في أمورها . ولقد قال علي رضي الله عنه لأمه فاطمة بنت أسد : « اكفي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سقاية الماء والذهاب في الحاجة ، وهي تكفيك من الداخل الطحن والعجن ، فكانت

---

(١) علي ابن أبي طالب أول الصبيان إسلاماً ، وأبو بكر أول الرجال إسلاماً ، ثم يليه عثمان ابن عفان والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وعبد الله بن مسعود ، وسعيد بن زيد ، وسعد بن أبي وقاص ، ومسعود بن ربيعة ، وجعفر بن أبي طالب ، وصهيب الرومي ، وزيد بن حارثة ، وكليب بن عمرو ، وخباب بن الأرت ، وعامر بن فهيرة ، ومصعب بن عمير ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن جحش ، وعمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعتبة بن غزوان ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وبلال بن رباح ، وخالد بن سعيد ، وعمرو بن سعيد وعياش بن أبي ربيعة ، وعامر بن ربيعة ، ونعيم بن عبد الله ، وعثمان بن مظعون ، وعبد الله بن مظعون ، وقدامة بن مظعون ، والسائب بن مظعون ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، وعمار بن ياسر ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وعامر بن أبي وقاص ، والسائب بن عثمان بن مظعون

بارة بها ، حانية عليها ، مدللة لأولادها ، عاطفة عليهم . ولما توفيت كفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قميصه ، وأمر من يحفر قبرها ، فلما بلغوا لحدها حفره بيده واضطجع فيه ، وقال : اللهم اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ، ولقنها حجتها ، ووسع عليها مدخلها . فقيل يارسول الله رأيناك صنعت شيئاً لم تكن تصنعه بأحد مثلها فقال : « ألبستها قميصى لتلبس من ثياب الجنة ، واضطجعت فى قبرها ليوسعه الله عليها ، وتأمن ضغطة القبر . إنها كانت من أحسن خلق الله صنعاً إلىّ بعد أبى طالب » .

وكان على رضى الله عنه يكنى أبا الحسن وأبا الحسين وأبا النورين وأبا تراب ، ويلقب بالمرتضى وحيدرة وأمير المؤمنين ؛ واختص دون الخلفاء جميعاً بلقب الإمام ، لأن جميع الشروط التى يجب أن تتوافر فى الإمام ، وفى مقدمتها العلم ، متوافرة فى سيدنا على رضى الله عنه . وسأوفى هذا الموضوع حقه إن شاء الله فى الجزء الخاص بالإمام على . ونقول هنا إن عبد الله بن عباس كان تلميذاً للإمام ، وعرف ابن عباس بالتبحر فى العلم حتى وصف بأنه « حبر الأمة وترجمان القرآن » ، ولما سئل ابن عباس : « أين علمك من علم ابن عمك ؟ » قال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط !

أما شمائله فقد دخل ضرار بن ضمرة الكنانى على معاوية ، فقال صف لى عليًّا قال : أعفنى . قال : لتصفنّه . قال : أما إذا كان لا بد من وصفه فإنه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير الدمعة ، طويل الفكرة ،

يقلب كفَّه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، وكان فينا كأحدنا ، يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا سألناه ، ويلبِّي إذا دعوناه ، وينبئنا إذا استنبأناه . ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له ، فإن تبسَّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظِّم أهل الدين ، ويقرب المساكين ، لايطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه — وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه - قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، فكأنى أسمعه الآن وهو يقول : ياربنا ياربنا هيهات ، يتضرع إليه ثم يقول : يادنيا غُرِّى غيرى ، ألىَّ تعرضتِ أم إلىَّ تشوفت ؟ هيهات ! قد بتتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك كبير ، وعيشك حقير ، آه ، آه ! من قلة الزاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق ! . . فبكى معاوية .

وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب : كان على إذا ورد عليه مال لم يبق منه شيئاً إلا قسمه ، ولا يترك فى بيت المال منه إلا ما يعجز عن قسمته فى يومه ذلك ، ويقول : « يادنيا غُرِّى غيرى » ولم يكن يستأثر من الفىء بشىء ، ولا يخص به حميماً ولا قريباً ، ولا يحص بالولايات إلا أهل الديانات والأمانات ، وإذا بلغه عن أحد خيانة كتب إليه : « قَدْ جاءتكم موعظة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ » . إذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يديك من عملنا حتى نبعث إليك من يتسلمه منك . ثم يرفع طرفه إلى السماء

ويقول : « اللهم إنك تعلم أنى لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا بترك حقك » .

ويقول الشريف الرضى فى مقدمة « نهج البلاغة » فى علىّ رضى الله عنه : « ومن عجائبه التى انفرد بها ، وأمن المشاركة فيها ، أن كلامه فى الزهد والمواعظ إذا تأمله المتأمل ، وخلع من قلبه أن كلام مثله من عظم قدره ، ونفذ أمره ، وأحاط بالرقاب ملكه ، لم يعترضه الشك فى أنه من كلام من لا حظ له فى غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة ، قد قنع فى كسر بيت ، أو انقطع فى سفح جبل ، لايسمع إلا حسه ، ولا يرى إلا نفسه ، ولا يكاد يوقن أنه كلام من يتغمس فى الحرب مصلتاً سيفه فيقط الرقاب ، ويجدل الأبطال ، ويعود به ينطف دماً ، ويقطر مهجاً ، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد ، وبدل الأبدال . وهذه من فضائله العجيبة ، وخصائصه اللطيفة الغريبة ، التى جمع بها بين الأضداد ، وألف بين الأشتات . وكثيراً ما أذكر الإخوان بها ، وأستخرج عجبهم منها ، وهى موضع للعبرة بها ، والفكرة فيها » .

وقال صاحب الحلية فى ترجمته : على بن أبى طالب ، وسيد القوم ، ومحب المشهود ، ومحبوب المعبود ، باب مدينة العلم والعلوم ، ورأس المخاطبات ، ومستنبط الإشارات ، راية المهتدين ، ونور المطيعين ، وولى المتقين ، وإمام العادلين ، أقدمهم إجابة وإيماناً ، وأقومهم قضية وإيقاناً ، وأعظمهم حلماً ، وأوفرهم علماً .

على بن أبى طالب كرم الله وجهه قدوة المتقين ، وزينة العارفين ، المنبئ عن حقائق التوحيد ، المشير إلى لوامع علم التفريد ، صاحب القلب العقول ، وللسان السؤول ، والأذن الواعية ، والعهود الوافية ، فقاء عيون

الفتن ، ووقاه من فتون المحن ، فدفع الناكثين ، وقمع القاسطين ، ودمغ المارقين .

أخشى أن أسترسل فى الكتابة على الإمام على بن أبى طالب ، مع أنى سأكتب عنه إن شاء الله جزءًا خاصًا به ، ولكنى أود أن أبين للقارئ الكريم من هو الرجل العظيم الذى اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم زوجاً للزهراء ، وقد اختاره لأنه تربى فى حجره صلى الله عليه وسلم ، وكما بينت كان السابق إلى الإسلام ، وقد بات على فراش الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة ، وقام مقامه عند الهجرة فى أداء الأمانات وردّ الودائع وقضاء الديون ، ثم مؤاخاة الرسول صلى الله عليه وسلم له ، وأنه صاحب رايته ، وما شهد عن شجاعته وقوته فى سبيل الله تعالى ، وفصاحته التى لاتبارى ، وعلمه المنقطع النظير ، وعرفانه بالفرائض والقضاء والفتيا ، وما أفاء الله عليه من حافظة ذاكرة ، وذاكرة وعية ، وزهده فى دنياه ، وعبادته وخوفه من الله تعالى ، وعدالته وقناعته ، وسخائه وجوده ، وحسن خلقه ، وطلاقة وجهه ، وأصالة رأيه ، وحسن تدبيره ، وشدته فى ذات الله تعالى ، إلى ما ورد أنه ولى كل مؤمن ، وأنه من النبى صلى الله عليه وسلم بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعده ، وأنه من آل البيت فى التطهير والنزاهة . وأخيرا إنه أحب شخصية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

السلالة الطاهرة

شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تكون السيدة الزهراء هى الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة ، والمنبت الطيب لدوحة الشرف من آل البيت .

والذرية الطاهرة من فاطمة هى ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأصدق شاهد على ذلك تجده فى سيرة النبى نفسه صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يبذل لأولاد الزهراء ، وللحسن والحسين عليهما السلام على الخصوص ، ما كان لايقصر عما يبذله أى أب تجاه أولاده .

رزقت السيدة الزهراء رضى الله عنها بنصيب صالح من البنين والبنات : الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم . وكان أسعد ما يسعدون به عطف الأب الأكبر الذى كان يواليهم به جميعاً ، ولا يصرفه عنه شاغل من شواغله الجسام فى محتدم الدعوة والجهاد ، وقد أوشكت كل كلمة قالها فى تدليل كل وليد أو الترحيب به أن تصبح تاريخاً محفوظاً فى الصدور والأوراق ، فلما أذيع نبأ ولادة الصديقة بالمولود الجديد (الإمام الحسن) غمرت موجات من السرور والفرح قلب النبى صلى الله عليه وسلم ، فسارع إلى بيت ابنته منزل الإمام على ، ونادى : ياأسماء هاتينى ابنى

فأسرعت أسماء ودفعته إليه فى خرقة صفراء .

فقال : « ألم أعهد إليكم ألاَّ تلفّوا المولود فى خرقة صفراء » .

وأذن صلى الله عليه وسلم فى أذنه اليمنى ، وأقام فى اليسرى ، فكان أول صوت سمعه المولود الجديد هو صوت جده الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت

أنشودة هذا الصوت « الله أكبر لا إله إلا الله » والتفت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإمام علىّ أمير المؤمنين وقال له : « هل سميت الوليد المبارك ؟ » فأجابه الإمام : « ما كنت لأسبقك يارسول الله ». فسماه الرسول عليه الصلاة والسلام حسناً .

وهكذا عند مولد الحسين ، فقدسأل الرسول صلى الله عليه وسلم الإمام علياً : أى شيء سميت ابنى ؟

قال ما كنت لأسبقك باسمه يا رسول الله ، وقد كنت أحب أن أسميه حرباً .

فقال الرسول : سَمِّه حسيناً .

وكذلك عند مولد المحسن — وقد مات وهو صغير .

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه ، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبى صلى الله عليه وسلم ، والرسول يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ، ولم يلبث أن حفظها المشرقان :

حُزَّقَّة[1] حُزَّقّة .

وربما شوهد النبى عليه الصلاة والسلام ساجداً وطفل من هؤلاء الأطفال راكب على كتفيه ، فيتأنى فى صلاته ، ويطيل السجدة ، لكيلا يزحزحه عن مركبه . وفى إحدى هذه السجدات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد : المطية مطيتك — وفى رواية أخرى أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم يوماً يمشى على أربع وعلى ظهره الحسن والحسين ، وهو يقول : « نِعْمَ الراكبان أنتما ، ونعم الجمل جملكما »

بل ربما كان على المنبر ، فقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران

(١) الحزقة : القصير .

فيسبقه حنانه إليهما ، وينزل من المنبر ليحملهما وهو يقول : « صدق الله العظيم . (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) » ؛ وفى هذا ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يعدّهما ولديْه .

وكان إذا سمع أحدهما يبكى نادى فاطمة وقال لها : « ما بكاء هذا الطفل ؟ ألا تعلمين أن بكاءه يؤذينى ؟ » .

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حيناً بعد حين . ويتولى خدمة الأطفال بنفسه ، وأبواهما قاعدان . فى إحدى هذه الليالى سمع الحسن يستسقى ، فقام صلوات الله عليه إلى قربة ، فجعل يعصرها فى القدح ، ثم جعل يعبعبه ، فتناول الحسين ، فمنعه وبدأ بالحسن . قالت فاطمة : كأنه أحب إليك ؟ قال : إنما استسقى أولا . وقد يلفّهم جميعاً فى برد واحد ويقول لهم : « أنا وأنتم يوم القيامة فى مكان واحد » .

وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعاً من أبوة الأب الصغير(١)

روى الترمذى من حديث أسامة بن زيد قال : طرقت النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الحاجة ، فقال : « هذان ابناى وابنا ابنتى اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما » .

لذلك يقال لكل من السبطين الحسن والحسين : يابن المصطفى ، وكان رضوان الله عليهما يعتزان بأبوته صلى الله عليه وسلم ويهتفان به ، فيقول كل منهما له صلى الله عليه وسلم : « يا أبت » فإذا هتف الحسن بأبيه علىّ قال له يا أبا الحسين . وإذا هتف الحسين بأبيه قال له : يا أبا الحسن . فلما انتقل جدهما صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى كانا

(١) فاطمة أم هؤلاء وهؤلاء ، للأستاذ عباس محمود العقاد

يقولان لأبيهما : « يا أبت » . كما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الحسن والحسين إنهما سيدا شباب أهل الجنة . ولذلك كانت أمهما تناديهما فتقول ياحسنان مرة ، وياحسينان مرة أخرى .

أما السيدة زينب فقد سماها الرسول صلى الله عليه وسلم إحياءً لذكرى ابنته الراحلة (زينب) التى ماتت فى طريقها إلى دار الهجرة عندما نخسها أحد المشركين فى بطنها . وكانت حاملا فسقط حملها ، وذلك بعد أن فرق الإسلام بينها وبين زوجها أبى العاص بن الربيع .

وزينب هى البرعم الثالث من براعم الزهراء . ولما وُلدت أقبل المهنئون من بنى هاشم والصحابة يباركون هذه الزهرة المتفتحة فى بيت الرسول ، تنشر فى المهد عبير المنبت الطيب ، وتلوح فى طلعتها المشرقة ملامح آباء وأجداد لها كرام .

وبرعى زينب وهى تدرج فى ساحة البيت الشريف محوطة برعاية خاصة من جدها العظيم وعطف سابغ من آلها الكرام ، فنراها على البعد صبية حلوة فى حضانة « الزهراء » ، تتلقى عنها الدروس الأولى فى الحياة ، فإذا جاورت دور الحضانة ألفت أمامها أعظم من أنجبتهم الجزيرة فى زمانها من المعلمين : جدها صاحب الرسالة ، وأبوها لفارس أمير البيان ، والعلماء والفقهاء من الصحابة الكرام . ولم تظفر صبية من لداتها فيما نحسب - بمثل ما ظفرت به هى فى تلك البيئة الرفيعة من تربية عالية ، وكان هذا كله بحيث يرضى « زينب » فى صباها ، ويتيح لنا أن نراها مرحة مزهوة . ولكنها لا تكاد تشب عن الطوق حتى يقال إنها عرفت النبوءة الأليمة . قيل إنها كانت تتلو شيئاً من القرآن الكريم بمسمع من أبيها ،

فبدا لها أن تسأله عن تفسير بعض الآيات ففعل ، ثم استطرد - متأثراً بذكائها اللامع - يلمح إلى ماينتظرها فى مستقبل أيامها من دور ذى خطر . ولشد ما كانت دهشته حين قالت له زينب فى جد رصين :

أعرف ذلك ياأبي . . لقد أخبرتنى به أمى ، كيما تهيئنى لغدى . ولم يجد الأب ما يقول ، فأطرق صامتاً ، وقلبه يخفق رحمة وحناناً(١).

وما إن بلغت زينب مبلغ الزواج حتى اختار لها أبوها بين المتقدمين لخطبتها من بنى هاشم وقريش ابن أخيه « عبد الله بن جعفر بن أبي طالب » الذى ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبوه إليها ، فكان أول من ولد من المسلمين . لقد كان سيداً شهماً ، كريم النفس ، سخى اليد ، أسرف على نفسه فى الجود حتى كان لا يبالى أن يهلك ماله أو أن يصل إلى أعدائه . وجعفر بن أبى طالب أحد السابقين إلى الإسلام . وكان أبو هريرة يقول ما احتذى النعال ، ولا ركب المطايا ، ولا وطئ التراب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جعفر بن أبي طالب ، رضى الله عنه .

وأثمر الزواج المبارك ثمرته ، فولدت له زينب أربعة بنين : علياً ومحمداً وعوناً والعباس ، كما ولدت له بنتين . ولقد كان أولادها الأربعة معها عندما سارت فى ركب أخيها الحسين إلى كربلاء ، وقد أخذ الضعف والعجز من أبيهم مأخذه ، فبقى فى المدينة ، وهكذا استشهدوا بين يدى خالهم العظيم على أرض الطف .

إن من يتصفح حياة عقيلة بنى هاشم « زينب » لا يستكثر علينا القول بأن النهضة التى نهضها الحسين عليه السلام بوجه الكفر والارتداد

(١) بطلة كربلاء ، للدكتورة بنت الشاطئ

عن دين الله كانت بتراء لو لم تبدأ « زينب » مهمتها من بعد معركة الطف آخذة بزمام الأمر فى كل المراحل . وعلى عاتقها فقط كتب الخلود لنهضة الحسين ، فكانت حلقة للوصل بين « الطف » والأجيال اللاحقة .

ولعل السرّ فى ذلك أن يزيد كان قد عمّى على أغلب الناس بأن الجيش الذى بعثه إنما هو لمحاربة بعض الخوارج فى العراق ، وأن الرؤوس التى حُملت إليه إنما هى رؤوس الخارجين على ربقة الطاعة والشاقين عصا المسلمين . ولكن « زينب » أوضحت للجمهور فى الكوفة والشام وفى الطريق أنها والنساء اللاتى معها بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألصقت الخزى والعار بيزيد ومناصريه فى ارتكابه الجريمة الشنعاء .

لقد خطبت فى الكوفة خطبة بليغة ، وخطبت فى الشام فى مجلس يزيد خطبة أخرى عظيمة كان لها أبلغ الأثر فى إيقاظ الجماهير ، وتوجيه أنظارهم إلى الحقيقة التى حاول يزيد عبثاً إخفاءها وإسدال الستار عليها ، وكانت هى المسئولة الوحيدة عن عيال الحسين والأنصار الذين أوصاتهم إلى المدينة المنورة .

استقبلت مدينة الرسول هذا الركب الحزين وليس معه رجل إلا « على بن الحسين السجاد » زين العابدين ، الذى كتب له البقاء لتستمر الإمامة بوجوده وتنتقل فى صلبه .

لقد ودعت المدينة هذا الركب بقيادة الحسين عليه السلام ومعه بنو هاشم ، وها هم أولاء يرجعون وقد تركوا الشهداء جثثاً بلا رؤوس على أرض الطف ، محطون أروع مظهر الشرف والإباء والتضحية فى سبيل الدين(١) .

---

(١) زهراء ، للأستاذ وصفى الحسينى .

ومن لمستغاثاتها ما كانت تترنم به كثيراً :

وكم لله من لطف خـــــفي يدق خفاه عن فهم الذكي
وكم يسر أتي من بعد عســـر وفرج كربة القلب الشجي
وكم أمر تنوء به صباحـــاً فتأتيك المسرة بالعشـــي
إذا ضاقت بك الأحوال يومـــاً فثق بالواحـــد الفرد العلي
توسل بالنبي فكل خطـــب يهـــون إذا توسل بالنبي
ولا تجزع إذا ما ناب خطـــب فكم لله من لطف خفي

وسأعود إن شاء الله إلى هذه السيرة العطرة في السلسلة التي أزمع إن شاء الله إخراجها .

أما السيدة أم كلثوم فقد ولدتها الزهراء عليها السلام بعد زينب وقد تزوجها عمر بن الخطاب فولدت له زيداً .

أما الابن الخامس للزهراء فهو المحسن ، ولم يقدر له أن يعيش .

هذه هي السلالة الطاهرة ، أهل البيت بحق .

obeikandl.com

الزهراء سيدة نساء العالمين

١ عن علي بن أبي طالب : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عليّ وفاطمة ، وأحد بعضادتي الباب ، وقال : « السلام عليكم يا أهل بيت الرحمة ، وموضع الرسالة ، ومنزل الملائكة ، يا بنية إن الله سبحانه وتعالى اطلع على أهل الأرض اطلاعه ، فاختار أباك فجعله نبيًّا ، ثم اطلع الثانية فاختار منهم زوجك عليًّا ، فجعله لي أخاً ووصيًّا ، ثم اطلع الثالثة فاختارك وأمك فجعلكما سيدتي نساء العالمين ، ثم اطلع الرابعة فاختار ابنيك فجعلهما سيدي شباب أهل الجنة ، فقال العرش : أي ربي ، ابنا نبيك ، وابنا وصي نبيك ، زيّني بهما ، فهما يوم القيامة في صفتي العرش بمنزلة الشفتين من الوجه » .

٢ – وفي الحلية عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه ، وجاءت فاطمة تمشي ما تخطئ مشيتها من مشية النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فلما رآها ، قال : مرحباً بابنتي . فأقعدها عن يمينه أو عن يساره ، ثم سارّها بشيء فبكت ، فقلت لها أنا من بين نسائه : قد خصك رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيننا بالسر وأنت تبكين ؟ ثم سارها النبي صلى الله عليه وسلم فضحكت ، فسألتها فقالت : ما كنت لأفشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم سره . فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم سألتها ، فقالت : أما بكائي فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : إن جبريل عليه السلام كان يعرض على القرآن

كل عامٍ مرة فعرضه العام مرتين ، ولا أرى أجلى إلا قد اقترب ، فبكيت ، ثم قال لى : اتقى الله واصبرى ، فإنى أنا نعم السلف لك . ثم قال : يا فاطمة ، أما ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين ، أو سيدة نساء هذه الأمة » فضحكت .

٣ – عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن ملكاً من السماء لم يكن زارنى ، فاستأذن ربى فى زيارتى ، فبشرنى وأخبرنى أن فاطمة سيدة نساء أمتى .

٤ – وروى ابن عبد البر أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : يا بنية ، ألا ترضين أنك سيدة نساء العالمين ؟ قالت : يا أبت ، فأين مريم ؟ قال : تلك سيدة نساء عالمها .

٥ – وروى الصادق فى الأمالى بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال فى فاطمة : «وإنها لسيدة نساء العالمين» ، فقيل ، يا رسول الله ، أهى سيدة نساء عالمها ؟ فقال : تلك مريم ابنة عمران فأما ابنتى فاطمة فهى سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين . وقد صرح بأفضليتها على سائر النساء حتى السيدة مريم ، كثير من العلماء المحققين ، منهم التقى السبكى والجلال السيوطى والبدر الزركشى والتقى المقريزى . وعبارة السبكى حين سئل عن ذلك : الذى نختاره أن فاطمة بنت محمد أفضل . وسئل عن مثل ذلك ابن أبى داود فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فاطمة بضعة منى ، ولا أعدل ببضعة رسول الله أحداً[١] .

٦ – وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال وهو

(١) الشرف المؤبد لآل محمد ، للسيد يوسف بن إسماعيل النبهانى .

فى مرضه الذى توفى فيه : يافاطمة ، ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين ، وسيدة نساء هذه الأمة ، وسيدة نساء المؤمنين ؟

٧ – وعن عمران بن حصين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لفاطمه : أما ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين ؟ قالت : فأين مريم ابنة عمران ؟ قال لها : أى بنية ، تلك سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء العالمين .

٨ – وأخيراً يقول المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد : « فى كل دين صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمنون كأنما هى آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى ، فإذا تقدست فى المسيحية صورة مريم العذراء ، ففى الإسلام لا جرم تتقدس صورة فاطمة البتول » .

روايتها الحديث :

أخذت السيدة الزهراء عن أبيها الكثير من الأحاديث ، بما تسمعه منه ، أو ما كان يأمر بكتابته لها . وقد أخذ عنها ابناها الحسن والحسين وأبوهما على وحفيدتها فاطمة بنت الحسين مرسلا ، وعائشة وأم سلمة وأنس ابن مالك وسلمى أم رافع رضى الله عنهم .

وقد ساعدها على ذلك أنها ألمت بكثير من علوم القرآن ، وأحاطت بأمور من الشرائع السابقة ، وكانت تعرف القراءة والكتابة ، وقد فطمها الله بالعلم ، وكان أبوها رسول الله صلى الله عليه وسلم يستكتب لها الصحف التى تسترشد بها فى أمر دينها ، وتبصرها بأمور دنياها .

فالسيدة فاطمة من أهل بيت اتقوا الله وعلمهم الله . وسأول أن أذكر

بعض ما رويته عن أبيها المصطفى صلى الله عليه وسلم :

١ – عن سليمان بن أبي سليمان ، عن أمه أم سليمان ، قالت : دخلت على عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألتها عن لحوم الأضاحي ، فقالت : قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ، ثم رخص فيها . قدم علي بن أبي طالب من سفر ، فأتته فاطمة بلحم من ضحاياها ، فقال أو لم ينه عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : إنه قد رخص فيها . قالت : فدخل عليّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن ذلك فقال له : كلها من ذى الحجة إلى ذى الحجة .

٢ – وعن فاطمة بنت الحسين عن جدتها فاطمة الزهراء ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمدوسلم ، وقال : اللهم اغفر لى ذنوبي ، وافتح لى أبواب رحمتك . وإذا خرج صلى على محمد وسلم ، ثم قال : اللهم اغفر لى ذنوبي ، وافتح لى أبواب فضلك .

٣ وعن فاطمة بنت الحسين ، عن جدتها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد ، قال : بسم الله والسلام على رسول الله ، اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك . . . .

٤ – وعنها أيضاً عن جدتها فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قالت : كان إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ، ثم قال : اللهم اغفر لى ذنوبي ، وافتح لى أبواب رحمتك . وإذا خرج صلى على محمد وسلم ، وقال : اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب فضلك .

٥ – وعن على عن فاطمة رضى الله عنهما قالت : قال لى رسول الله صلى الله . عليه وسلم : يا حبيبة أبيها ، كل مسكر حرام ، وكل مسكر خمر .

٦ – وعن فاطمة رضى الله عنها قالت : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت : السلام عليك يا أبت ، فقال : وعليك السلام يا بنية ، فقلت : والله ما أصبح يا نبى الله فى بيت علىّ حبة طعام ، ولا دخل بين شفتيه طعام منذ خمس ، ولا أصبحت له ثاغية ولا راغية ، ولا أصبح فى بيته سفة ولا هفة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ادنى منى ، فدنوت ، فقال : أدخلى يدك بين ظهرى وثوبى . فإذا حجر بين كتفى النبى صلى الله عليه وسلم مربوط إلى صدره ، فصاحت فاطمة صيحة شديدة ، فقال لها : ما أوقدت فى بيوت آل محمد نار منذ شهر . ثم قال صلى الله عليه وسلم : أتدرين ما منزلة على ؟ إنه كفانى أمرى وهو ابن اثنى عشرة سنة ، وضرب بين يدى بالسيف وهو ابن ست عشرة سنة ، وقتل الأبطال وهو ابن تسع عشرة سنة ، وفرج همومى وهو ابن عشرين سنة ، ورفع باب خيبر وهو ابن نيف وعشرين ، وكان لا يرفعه خمسون رجلا . فأشرق وجه فاطمة ، ثم أتت عليًا فإذا البيت قد أنار بنور وجهها ، فقال لها : يا بنة محمد ، لقد خرجت من عندى ووجهك على غير هذه الحال ، فقالت : إن النبى صلى الله عليه وسلم حدثنى بفضلك ، فما تمالكت حتى جئتك .

٧ – وعن الحسين رضى الله عنه ، عن أمه فاطمة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياك والبخل ، فإنه عاهة لا تكون فى كريم ، إياك والبخل ، فإنه شجرة فى النار وأغصانها فى الدنيا ، فمن

تعلق بغصن من أغصانها أدخله النار ، وعليك بالسخاء ، فإن السخاء شجرة من شجر الجنة ، أغصانها متدلية إلى الأرض ، فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة .

٨ – وعن الحسين ، عن فاطمة رضى الله عنها ، أنها قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن فى الجمعة لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله عز وجل فيها خيراً إلا أعطاه ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، أى ساعة هى ؟ قال : إذا تدلىّ نصف عين الشمس للغروب ، قال : وكانت فاطمة رضى الله عنها تقول لغلامها : اصعد على السطح ، فإن رأيت نصف عين الشمس قد تدلى للغروب فأعلمنى ، حتى أدعو .

٩ – وعن فاطمة الصغرى بنت الحسين رضى الله عنهما ، عن أبيها عن جدتها فاطمة الكبرى بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يدفن من ولدى سبعة بشاطئ الفرات ، لم يبلغهم الأولون ، ولم يدركهم الآخرون .

١٠ وعن ابن عساكر بسنده ، عن فاطمة البتول بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شرار أمتى الذين غذوا بالنعم ، الذين يأكلون ألوان الطعام ، ويلبسون ألوان الثياب ، ويتشدقون فى الكلام .

١١ – وعن فاطمة الصغرى عن أبيها ، عن فاطمة الكبرى رضى الله عنهم ، قالت : قال النبى صلى الله عليه وسلم : لكل نبى عصبة ينتمون إليه ، وإن بنى فاطمة عصبتى التى إليها ننتمى .

١٢ – وفى دلائل الإمامة بسنده ، عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله

عليه وسلم أنه أتت رسول الله بالحسن والحسين ، فى مرضه الذى توفى فيه ، فقالت : يا رسول الله ، إن هذين لم تورثهما شيئاً ، فقال : أما الحسن فله هيبتى وسؤددى ، وأما الحسين فله جرأتى وجودى .

هجرتها :

لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة نزل فى بنى عمرو ابن عوف بقباء ، فأراده صاحبه على دخول المدينة ، فقال : ما أنا بداخلها حتى يقدم ابن عمى وابنتى ، يعنى عليًّا وفاطمة رضى الله عنهما .

ثم كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى على رضى الله عنه مع أبى واقد الليثى يأمره بالمسير إليه ، فلما أتاه الكتاب تهيأ للخروج ، وأمر من كان معه من ضعفاء المؤمنين أن يتسللوا ليلا إلى ذى طوى ، وخرج علىّ بالفواطم ، وهن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمه فاطمة بنت أسد ، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب ، رضى الله عنهن . وتبعهم أيمن بن أم أيمن مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو واقد الذى جاء بالكتاب ، فجعل أبو واقد يسوق ، الرواحل سوقاً حثيثاً ، فقال على رضى الله عنه : رفقاً بالنسوة يا أبا واقد ، إنهن من الضعائف . قال : إنى أخاف أن يدركنا الطلب . فقال على رضى الله عنه : أربعْ عليك (أى لا تخف) ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : يا على إنهم لن يصلوا إليك بما تكرهه . ثم جعل علىّ رضى الله عنه يسوق بهن سوقاً رقيقاً وهو يرتجز ويقول :

ليس إلا الله فارفع ظنّكـــا يكفيك رب الناس ما أهمكـا

وسار على رضى الله عنه . فلما قارب ضحنان (وهو منزل بين مكة والمدينة ، أو جبيل على بريد من مكة ، وهناك العميم ، فى أسفله مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم) أدركه الطلب ، وهم ثمانية فرسان ملثمون ، ومعهم ميل لحرب بن أمية اسمه جناح ، فقال على رضى الله عنه لأيمن وأبى واقد : أنيخا الإبل واعقلاها . وتقدم فأنزل النسوة ، ودنا القوم ، فاستقبلهم على رضى الله عنه ، فقالوا : ظننت أنك يا غدار تأخذ النسوة ؟ ! ارجع لا أبا لك ! قال : فإن لم أفعل ؟ قالوا : لترجعن راغماً ، أو لترجعن بأكثرك شعراً (أى رأسك) ، وأهون بك من هالك . ودنا الفوارس من المطايا ليثيروها ، فحال على رضى الله عنه بينهم وبينها ، فأهوى له جناح بسيفه ، فراغ علىّ رضى الله عنه عن ضربته ، وضربه ضربة على عاتقه فقدّه نصفين حتى وصل السيف إلى كتف فرسه ، وشدّ على أصحابه وهو على قدميه شدة ضيغم وهو يرتجز ويقول :

خلوا سبيل الجاهد المجاهد آليت لا أعبد غير الواحد

فتفرق القوم عنه ، وقالوا : احبس نفسك يا بن أبى طالب . قال : فإنى منطلق إلى أخى وابن عمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن سرّه أن أفرى لحمه وأريق دمه فليدن منى ثم أقبل على أيمن وأبى واقد وقال لهما : أطلقا مطايا كما . ثم سار ظافراً قاهراً حتى نزل منزلا بعد ضحنان ، فلبث فيها يومه وليله . ولحق به نفر من المستضعفين من المؤمنين . فيهم أم أيمن مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبات ليلته تلك هو ومن معه طوراً يذكرون الله تعالى ، وطوراً يصلون لله عزّ وجل قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، حتى طلع الفجر ، فصلى بهم صلاة الفجر ، ثم ساروا لا يفترون عن ذكر

لله تعالى . وهكذا دواليك فى نُهْرهم وليَاليهم حتى قدموا المدينة ، وقد نزل الوحى عن كان من شأنهم قبل قدومهم بقوله تعالى : (الَّذين يذْكُرون الله قِياماً وقُعُود وعلى جُنُوبهِمْ) إلى قوله تعالى : (فاسْتجَابَ لهُمْ ربُّهُمْ أنِّى لا أُضيعُ عَملَ عَاملٍ مِنْكُمْ منْ ذَكرٍ أوْ أُنْثَى بعْضُكُمْ مِنْ بعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا منْ دِيارِهِمْ وأُوذُوا فى سبيلى وَقَاتلُوا وقُتِلُوا لأُكفِّرنَّ عَنْهُمْ سيِّئاتهمْ ولأُدْخِلنَّهُمْ جنَّاتٍ تجْرى منْ تَحْتِهَا الأنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللهِ واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّواب) .

وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : (ومِن النَّاسِ منْ يَشْرِى نَفْسهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ واللهُ رءُوفٌ بالْعِبَادِ) . وقد فرح المصطفى صلى الله عليه وسلم بلقيا الزهراء رضى الله عنها ، وعانقها ، وقبلها ، ثم أخذ بيد علىّ رضى الله عنه ، وقال : هذا أخى ووارث علمى ، وهو معى فى الجنة فى قصرى مع ابنتى الزهراء .

ونزلت فاطمة رضى الله عنها منزلا كريماً على أم أيوب الأنصارية ، امرأة أبى أيوب الأنصارى ، وهى من الخزرج وما كانت تعرف إلا بكنيتها ، وهى بنت قيس بن عمرو بن امرئ القيس ، وزوجها أبو أيوب الأنصارى مشهور بكنيته ، واسمه خالد بن زيد البخارى الأنصارى ، شهد العقبة وبدرا وأحدا والخندق وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مع على رضى الله عنه ، ومن خاصته ، وشهد معه الجمل وصفين ، وكان على مقدمة يوم النهروان ، وقد لزم الجهاد فغزا أيام معاوية أرض الروم مع يزيد بن معاوية ، فمرض أبو أيوب فعاده يزيد ، فدخل عليه ، وقال له : ما حاجتك ؟ قال : حاجتى إذا أنا مت فاركب ثم اسع فى أرض العدو

ما وجدت مساغاً فادفنى ، ثم ارجع . فتوفى ، ففعل يزيد وجيشه ذلك ، ودفنوه بالقرب من القسطنطينية سنة إحدى وخمسين ، وقبره يستسقون به ، ويعوذون برحابه ، وهو معروف بإجابة الدعاء . وعندما فتحت القسطنطينية على يد الأتراك سنة ٨٥٧ بقيادة السلطان محمد بن مراد ، أو محمد الفاتح . بنو على ضريحه قبة ، وأقاموا إلى جانبه مسجداً كانوا يبايعون فيه سلاطين آل عثمان ، حيث يقلد السلطان سيف عثمان مؤسس الدولة العثمانية من يد إمام مسجد أبي أيوب الأنصارى رضى الله عنه .

وقد نزل النبى صلى الله عليه وسلم أول ما نزل فى داره . ولما بركت ناقته صلى الله عليه وسلم على باب أبي أيوب خرج جوارٍ من بنى النجار يضربن بالدفوف ويقلن :

نحن جوار من بنى النجار ... يا حبذا محمد من جار

وما رئى يوم كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أضاء من المدينة كل شيء ، وكان مقامه صلى الله عليه وسلم بدار أبى أيوب قرابة سبعة أشهر ، أقامت معه فيها بنته فاطمة رضى الله عنها ، أو فى أحراها بعد هجرتها .

وتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم سودة بنت زمعة القرشية العامرية بعد خديجة ، واتخذ لها داراً بالمدينة ، فانتقل هو وفاطمة رضى الله عنها إلى تلك الدار ، فكانت سودة تتولاها وتقوم بحاجتها .

ثم تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بنت أمية القرشية المخزومية ، فانتقلت فاطمة إلى بيتها . وقالت أم سلمة رضى الله عنها تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفوّض إلىّ أمر ابنته فاطمة ، فكنت أؤدبها

وأدبها ، وكانت والله آدب منى ، وأعرف بالأشياء كلها إلى أن بنى بها علىّ رضى الله عنه ، فانتقل بها إلى بيت مستقل فى موضع الزور مخرج النبى صلى الله عليه وسلم

وكان السلف الصالح ومن اقتدى بهم لا يسود حظهم من الصلاة إلى الأسطوانة التى خلف الأسطوانة المواجهة للزور ، فإنها كانت باب فاطمة التى كان على يدخل إليها منه . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيه ويأخذ بعضادتي الباب . ويقول : السلام عليكم أهل البيت . الصلاة الصلاة ، ثلاث مرات . ثم يقول : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) .

ولما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد جعل علىّ ينقل له الماء فى درقته من المهراس ويغسل له جرحه ، فلم ينقطع الدم ، فأتت فاطمة وجعلت تعانقه وتبكى ، وأحرقت حصيراً ، وجعلت على الجرح من رماده فانقطع الدم . وفى رواية أنه عليه السلام لما انصرف إلى المدينة استقبلته فاطمة ، ومعها إناء فيه ماء ، فغسل وجهه ، وأنه عليه السلام دفع إليها سيفه ، وقال : اغسلى عن هذا دمه يا بنية ، وأن علياً ناولها سيفه وقال : وهذا ، فاغسلى عنه ، فوالله لقد صدقنى اليوم ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لها : خذيه يا فاطمة فقد أدى بعلك ما عليه . واختصها النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ولم يعط بعض أزواجه سيفه . ومدح علياً عليه السلام بالشجاعة أمامها لتسرّ بشجاعة بعلها .

ويوم مؤتة ، لما قتل ابن عمها جعفر ، دخل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وهى تقول : واعماه ! فقال : على مثل جعفر فلتبك الباكية أو البواكى .

وخرجت مع أبيها وبعلها يوم فتح مكة ، وضربت للنبي صلى الله عليه وسلم قبة بأعلى الوادى ، وجلس فيها يغتسل ، وفاطمة تستره ، وذهب علىّ إلى بيت أخته أم هانئ حين بلغه أنها آوت إناساً من بنى مخزوم أقرباء زوجها ، فلم تعرفه أم هانئ لأنه مقنع بالحديد ، وقالت له : يا عبد الله أنا أم هانئ ، ابنة عم رسول الله ، وأخت على بن أبى طالب . انصرف عن دارى . فقال : أخرجوا من آويتم ، فقالت : والله لأشكونك إلى رسول الله ، فسرع المغفر ، فعرفته ، وقالت : فديتك . حلفت لأشكونك إلى رسول الله ، فقال : اذهبى فبرّى قسمك ، فجاءت فأخبرته ، فقال : قد أجرت من أجرت ، فقالت فاطمة منتصرة لبعلها : إنما جئت يا أم هانئ تشكين علينا فى أنه أخاف أعداء الله وأعداء رسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد شكر الله لعلى سعيه ، وأجرت من أجارت أم هانئ لمكانها من على ، فجمع صلى الله عليه وسلم بمكارم أخلاقه بين حفظ شأن علىّ وإكرام أم هانئ لاجله .

وكان من عادة الزهراء رضى الله عنها أن تزور الروضة الشريفة ، وقبر والدتها السيدة خديجة الكبرى رضى الله عنها . وعن أبى جعفر محمد الباقر رضى الله عنه قال : إن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر حمزة رضى الله عنه ، ترمّه وتصلحه ، وقد علمته بحجر . وعن زرين قال أبو جعفر محمد الباقر رضى الله عنه : إن فاطمة رضى الله عنها كانت تزور قبور الشهداء بين اليومين والثلاثة ، فتصلى هناك وتدعو وتبكى . وروى الحاكم عن على رضى الله عنه قال : إن فاطمة كانت تزور قبر عمها حمزة كل جمعة ، فتصلى وتبكى عنده .

مشاركة الزهراء فى الشؤون العامة :

نشأت رضى الله عنها نشأة نبوية . وقد ثبت اشتراكها فى بعض غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان يصطفيها لأسراره ، فاشتركت فعلا مع أبيها فى حروبه ، إذ أنها كما كانت تقوم بأمر بيتها وتدبيره ، وتربية أولادها وتنشئتهم . كانت تجاذب أباها رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجها عليًّا رضى الله عنه الشئون الخارجية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضرها فى الأمور الهامة ، فقد حضرت بيعة النساء ، كما حضرت مباهلة وفد نجران ، فقد نزل على النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : (فَمَنْ حَاجَّكَ فيه مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَاوَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللهِ على الْكَاذِبِينَ) .

وكان وفد نجران قدوفدو فيه العاقب والسيد ومن معهم ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة ، فاستنظره إلى صبيحة غد من يومهم ذلك ، فلما رجعوا إلى رجالهم قال لهم الأسقف : انظروا محمدًا فى غد ، فإن غدا بولده وأهله فاحذروا مباهلته ، وإن غدا بأصحابه فباهلوه ، فإنه على غير شيء . فلما كان الغد جاء النبى صلى الله عليه وسلم آخذًا بيد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والحسن والحسين رضى الله عنهما بين يديه يمشيان وفاطمة رضى الله عنها تمشى خلفه . وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم قد أقبل بمن معه سأل عنهم ، فقيل له هذا ابن عمه وزوج ابنته وأحب الخلق إليه . وهذان ابنا بنته من علىّ ، وهما ريحانتاه ، وهذه الجارية ابنته فاطمة أعز الناس عليه ، وأقربهم

إلى قلبه . وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجثا على ركبتيه . قال أبو حارثة الأسقف : جثا والله كما جثا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام للمباهلة ، فرجع ولم يقدم على المباهلة .

فقال السيدان : يا أبا حارثة تقدم للمباهلة . فقال : لا . إني لأرى رجلا جريئاً على المباهلة ، وأنا أخاف أن يكون صادقاً ، ولئن كان صادقاً لم يحل والله علينا الحول وفي الدنيا نصراني يطعم الماء . فقال الأسقف : يا أبا القاسم ، إنا لا نباهلك ، ولكن نصالحك ، فصالحنا على ما ننهض به ، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألفي حلة من حلل الأواقي ، قيمة كل حلة أربعون درهماً ، فما زاد أو نقص فعلى حساب ذلك ، وعلى عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين رمحاً ، وثلاثين فرساً إن كان باليمن كيد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ضامن حتى يؤديها . وكتب لهم رسول الله صل الله عليه وسلم كتاباً : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما كتب محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران ، إذا كان عليهم حكمه ، في كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء ورقيق فأفضل ذلك عليهم ، وترك ذلك كله لهم على ألفي حلة من حلل الأواقي في كل رجب ألف حلة . وفي كل صفر ألف حلة ، مع كل حلة أوقية من الفضة ، فما زادت على الخراج أو نقصت على الأواقي فبالحساب ، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب ، وعلى نجران مؤنة رسلي ومنعتهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ، ولا تحبس رسلي فوق شهر ، وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ومعرة ، وما هلك مما أعاروا رسلي من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمين على رسلي حتى

يؤدوه إليهم ، ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبعثهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير ما كانوا عليه ، ولا يغير حقًا من حقوقهم وأمثلتهم ، لا يفتن أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا واقه من وفهيته ، على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وليس عليهم رهن ولا دم جاهلية ، ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش . من سأل منهم حقًا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين بنجران . ومن أكل منهم ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر ، ولهم على ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي أبدًا حتى يأتى أمر الله ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مكلفين شيئًا بظلم . شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف من بنى نصر ، والأقرع بن حابس الحنظلى ، والمغيرة بن شعبة . وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبي بكر .

وكانت رضى الله عنها تحضر الوغى والحروب ، وتكون تحت ظلال السيوف تراقب أباها وزوجها ، فتروى الظماء ، وتأسو الجراح ، وتجبر الكسير ، وترقأ الدماء ، وتثير الحمية والبسالة . وقد ذكر الواقدى أن السيدة فاطمة رضى الله عنها فى معركة أحد كما سبق وذكرت -- كانت تضمد جراح المسلمين . ولا تسل عنها حين قتل عم أبيها حمزة رضى الله عنه ، وقد كان من أشد أبطال المسلمين ، فقد أصابتها من قتله لوعة ، فتقطعت عليه حسرات ، وتصدعت زفرات ، وتمثلت يومها وفاة أمها خديجة رضى الله عنها ، فعاودها الأسى ، وأورثها المصاب كربة وكآبة .

أخلاقها :

كانت رضى الله عنها كريمة الخليقة ، شريفة الملكة ، نبيلة النفس ، جليلة الحس ، سريعة الفهم ، مرهفة الذهن ، جزلة المروءة ، غراء المكارم ، فيحة نفاحة ، جريئة الصدر ، رابطة الجأش ، حمية الأنف ، نائية عن مذاهب العجب ، لا يحددها مادى الخيلاء . ولا يثنى أعطافها الزهو والكبرياء .

ويقول أحمد بن حنبل رضى الله عنه فى حياتها وعزوفها ، جاءت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : ما جاء بك يا بنية ؟ فقالت : جئت لأسلم عليك ، واستحيت أن تسأله ورجعت ، فقال لها على رضى الله عنه : ما فعلت ؟ قالت : استحييت أن أسأله ، فأتيا جميعاً ، فقال على : يا رسول الله ، لقد سموت حتى اشتكيت ظهرى ، وقالت فاطمة : لقد طحنت حتى مجلت يداى فاخدما خادماً ، فقال : والله لا أعطيكما ، وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع ، ولكن أبيعهم ، وأنفق عليهم أثمانهم ، ثم قال تحمدان عشراً ، وتسبحان عشراً ، وتكبران عشرا ، فرجعت وعلىّ بأثرها لا يلويان على شىء .

وكانت مبسطة الخليقة فى سماحة وهوادة ، إلى رحابة صدر ، وسعة أناة ، فى وقار وسكينة ، ورفق ورزانة ، وزكانة ورصانة ، وعفة وصيانة .

عاشت قبل وفاة أبيها متهللة العزة ، وضّاحة المحيا ، حسنة البشر ، باسمة الثغر ، لم تعرف بسمتها إلا منذ وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم . وكانت رضى الله عنها لا يجرى لسانها بغير الحق ، ولا تنطق إلا بالصدق ، لا تذكر أحداً

بسوء فلا عيبة ولانميمة ، ولا همز ولا لمز ، تحفظ السر ، وتفى بالوعد ، وتصدق النصح ، وتقبل العذر ، وتتجاوز عن الإساءة ، فكثيراً ما أقالت العثرة ، وتلقت الإساءة بالحلم والصفح ، عزوفة عن الشر ، ميالة إلى الخير وكانت رضى الله عنها صدوقا فى قولها ، صادقة فى نيتها ، صادقة فى وفائها ، وهى تعرف أن زوجها علياً ما بلغ ما بلغه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة .

وعن عمرو بن دينار قال : قالت عائشة رضى الله عنها : ما رأيت أحداً قط أصدق من فاطمة غير أبيها . قال : وكان منها شيء فقالت عائشة : « يا رسول الله سلها ، فإنها لا تكذب » . وفى الاستيعاب بسنده ، قالت عائشة : « ما رأيت أحدا كان أصدق لهجة من فاطمة إلا أن يكون الذى ولدها » .

وكانت رضى الله عنها أمينة حافظة للسر ، لا ترضى لنفسها أن تذيع لأحد سراً أو تفشى له أمرا ، وقد سمعت من أبيها صلى الله عليه وسلم قوله : « طوبى لعبد نُومة ، عرفه الله ولم يعرفه الناس ، أولئك مصابيح الهدى ، وينابيع العلم ، تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء ، ليسوا بالمذاييع البذر ، ولا الجفاة المراثين » .

وكانت فى الذروة العالية من العفاف والتصادق ، طاهرة الذيل ، عفيفة المئزر ، عفيفة الطرف ، لا يميل بها هواها ، بل إنها فى حصانة وصيانة وطهر ، فهى من آل بيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم الذين قال الله فى حقهم : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) .

عن أنس رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما خير النساء؟ فلم ندر مانقول ، فصار على رضى الله عنه إلى فاطمة رضى الله عنها ، فأخبرها بذلك ، فقالت : فهلا قلت له « خير لهن ألا يرين الرجال ولا يروهن » فرجع ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال له : من علمك هذا ؟ ! قال : فاطمة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنما فاطمة بضعة مني » .

وعن عمران بن حصين قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ألا تنطلق بنا نعود فاطمة ، فإنها تشتكي ، قلت : بلى ، قال : فانطلقنا ، حتى إذا انتهينا إلى بابها سلم واستأذن ، فقال : أدخل أنا ومن معي ؟ قالت : نعم ، ومن معك يا أبتاه ، فوالله ما عليّ إلا عباءة ، فقال لها : اصنعي بها كذا ، واصنعي بها كذا ، فعلمها كيف تستتر ، فقالت . والله ما على رأسي من خمار ، قال : فأخذ خلق ملاءة كانت عليه ، فقال : اختمري بها ، ثم أذنت لهما فدخلا ، فقال : كيف تجدينك يا بنية ؟ قالت : إني وجعة ، وإنه ليزيدني أنه ما لي طعام آكله ، قال : يا بنية ، أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين ؟ قال : تقول هذا يا أبت ! فأين مريم ابنة عمران ، قال : تلك سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء العالمين ، أما والله لقد زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة .

وعن جابر بن سمرة ، قال : جاء نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس فقال : إن فاطمة وجعة ، فقال القوم : لو عدناها ، فقام ومشى حتى انتهى إلى الباب فنادى : شدي عليك ثيابك ، فإن القوم جاءوا يعودونك ، فقالت : يا نبي الله ، ما عليّ إلا عباءة ، قال : فأخذ رداءه فرمى به إليها

من وراء الباب . فقال : شدى بهذا رأسك ، فدخل ودخل القوم ، فقعد ساعة فخرجوا ، فقال القوم : تالله بنت نبينا صلى الله عليه وسلم على هذا الحال ، قال : فالتفت ، فقال : « أما إنها سيدة النساء يوم القيامة » .

وكانت إذا ما كلمها إنسان ، أو خطبت الرجال ، يكون بينها وبينهم ستر يحجبها عنهم عفة وصيانة . ومن عجيب تصاونها رضى الله عنها أنها استقبحت بعد الوفاة ما يصنع بالنساء من أن يطرح على المرأة الثوب فيصفها ، فوصفت لها أسماء بنت عميس ما رأته بالحبشة مما يشبه الهودج ، كما سنرى ذلك تفصيلا فيما بعد ، تكون به المتوفاة ، ويطرح عليه الثوب فيكون ساتراً لها فاستحسنته ، وقالت : ما أحسن هذا وأجمله ، وأوصت به حتى لا يتبين أحد وصفها بعد وفاتها عفة وتصاوناً .

وكانت الزهراء رضى الله عنها قانعة بحالها ، وكانت توقن أن الحرص يفرق القلب . ويشتت الأمر ، وكانت تستمسك بما سمعته عن أبيها صلى الله عليه وسلم ، قال : « طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً أو قنع به » ، وسمعته صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فى الناس ويقول : أيها الناس أجملوا فى الطلب ، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له فى الدنيا ، ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له فيها ، وهى راغمة . وقد قال لها أبوها صلى الله عليه وسلم : « يافاطمة اصبرى على مرارة الدنيا لتفوزى بنعيم الأبد » .

وعن أسماء بنت عميس ، عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاها يوماً فقال : أين ابناى ، يعنى حسناً وحسيناً ، قالت : قلت : أصبحنا وليس فى بيتنا شئ يذوقه ذائق ، وإنا لنحمد الله تعالى ، فقال علىّ : أذهب بهما ، فإنى أخوف أن يبكيا عليك ،

وليس عندك شئ ، فذهب بهما إلى اليهودى ، فتوجه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدهما يلعنان فى مشربة بين أيديهما فصل من تمر فقال : يا علىّ ، ألا تقلب انى (أى ترجعهما) قبل أن يشتد الحر عليهما ؟ قال علىّ : قد أصبحنا ، وليس فى بيتنا شئ ، فلو جئت يا رسول الله حتى أجمع لفاطمة تمرات ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ينزع لليهودى كل دلو بتمرة حتى جمع له شئ من تمر ، وحمله رسول الله وعلىّ ، وفاطمة صابرة الصبر الجميل على تلك العيشة الشديدة ، تستقبلها بقناعتها ، وتكثر من حمد الله تعالى عليها ، فهى قانعة بحالها ، راضية بعيشها ، وهى التى أقرأها أبوها صلى الله عليه وسلم ما خاطبه به ربه : (فلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ) ، وقوله : (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ، فكانت لقاء هذا راضية باليسير من العيش ، صابرة على شظف الحياة قانعة باليسير من الحلال ، فكانت نفسها راضية مرضية .

وكانت الزهراء رضى الله عنها لا تطمح إلى ما لغيرها ، ولا تستشرف ببصرها إلى ما ليس من حقها ، فما كانت تطمع فى حق أحد ، وما كانت تتنزل إلى سؤال غير الله تعالى ، فهى غنية بنفسها ، قريرة بحالها ، وقد قال أبوها صلى الله عليه وسلم : ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس . وقد قال صلى الله عليه وسلم لأعرابى وهو يعظه : إذا صليت فصل صلاة مودع ، ولا تحدث بحديث تعتذر منه غدًا ، واجمع اليأس عما فى أيدى الناس ، فإن اليأس عما فى أيدى الناس هو الغنى الحاضر . وقد سمعت الإمام على يقول : « ليجتمع فى قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم ، فيكون افتقارك إليهم فى لين كلامك ، وحسن بشرك ، ويكون استغناؤك عنهم

فى نزاهة عرضك ، وبقاء عزك ، ولا بدع فهى السيدة البتول التى انقطعت إلى اللّه تعالى عن دنياها ، وعزفت عن زخارفها ومشتهاها ، فكانت عن متعة الحياة عازفة ، وعن غرورها صادقة ، وبآفات دنياها عارفة ، وما عرف عنها فى حياتها أنها استشرفت لشئ منها طيب نفس وعزة قناعة ، تتسربل الصبر الجميل لأدواء الحياة ، وتعانى شظف العيش فى دنياها ، ولسانها رطب بذكر مولاها .

لقد كان هم الزهراء الآخرة ، فلم تحفل بزخارف الدنيا ومباهجها ، ولقد قال أبوها صلى اللّه عليه وسلم : «من أصبح وهمه الدنيا شتت اللّه عليه أمره ، وفرق عليه جمعه ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له . ومن أصبح وهمه الآخرة جمع اللّه له همه ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة » . وقد قال صلى اللّه عليه وسلم لعلى رضى اللّه عنه وفاطمة رضى اللّه عنها بمسمع من ذلك : « يا على من عرضت له دنياه وآخرته فاختار الآخرة وترك الدنيا فله الجنة ومن اختار الدنيا استخفافاً بآخرته ، فله النار » .

وقد تأدبت رضى اللّه عنها بآداب أبيها المصطفى صلى اللّه عليه وسلم ، وقد سمعته يقول : « إن ربى عزوجل عرض على أن يجعل لى بطحاءَ مكة ذهباً ، فقلت : لا يارب ، ولكن أجوع يوماً ، وأشبع يوماً ، فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » . فنشأت رضوان الله عليها قالية للدنيا ، عائفة لمتعها ، منصرفة عن زينتها وشهواتها .

وقد روى الحاكم فى المستدرك بسنده أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم دخل على فاطمة وقد أخذت من عنقها بسلسلة من ذهب ، فقالت : هذه أهداها أبو الحسن . فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : يافاطمة أيسرك

أن يقول الناس فاطمة بنت محمد وفى يدك سلسلة من نار» ، ثم خرج ولم يقعد ، فعمدت فاطمة رضى الله عنها إلى السلسلة فباعتها ، واشترت غلاماً فأعتقته ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « الحمد لله الذى نجى فاطمة من النار » .

لقد كانت الزهراء راضية بحالها ، تاركة الاعتراض والسخط ، وهذه آية من آيات حبها لربها عز وجل ، أعرضت عن متاع الدنيا وطيباتها ، ورضيت بشظف العيش ، واستوى عندها الفقر والغنى ، والراحة والعناء ، والصحة والمرض ، والفناء والبقاء ، والموت والحياة . ولقد عرف عنها رضى الله عنها صبرها على البلاء ، وشكرها عند الرجاء ، ورضاها بوقع القضاء . وقد روت عن أبيها صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن رضى اصطفاه » . ومما لقنته لولديها : الصبر والرضا رأس طاعة الله تعالى ، ومن صبر ورضى عن الله تعالى فيما قضى عليه أحب أو كره لم يقض الله عز وجل له فيما أحب أو كره إلا ما هو خير له ، وقد عرفت أن الله عز وجل أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام ، يا موسى ابن عمران ما خلقت خلقاً أحب إلى من عبدى المؤمن ، وإنى إنما أبتليه لما هو خير له ، وأزوى عنه لما هو خير له ، وأعلم بما يصلح عليه عبدى ، فليصبر على بلائى ، وليشكر نعمائى ، وليرض بقضائى ، أكتبه فى الصديقين عبدى إذا عمل برضاى ، وأطاع أمرى .

وكانت رضى الله عنها على هدى أبيها صلى الله عليه وسلم فى جوده وسخائه ، لأنها سمعت أباها صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « السخاء شجرة من شجر الجنة ، أغصانها متدلية إلى الأرض ، فمن أخذ منها غصناً قاده

ذلك الغصن إلى الجنة » . وكذلك سمعت الرسول حين قال : « السخى قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد عن النار ، وإن الله سبحانه وتعالى جواد يحب الجواد » .

وفى دلائل الإمامة بسنده عن الحسين رضى الله عنه ، عن أمه فاطمة رضى الله عنها قالت : قال لى أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياك والبخل ، فإنه عاهة لا تكون فى كريم ، إياك والبخل ، فإنه شجرة فى النار ، وأغصانها فى الدنيا ، فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخله النار والسخاء شجرة فى الجنة ، وأغصانه فى الدنيا ، فمن تعلق بغصن من أغصانه أدخله الجنة » ، كما أنها سمعت زوجها عليًا رضى الله عنه يقول : « ومن يبسط يده بالمعروف إذا وجده يخلف الله له ما أنفق فى دنياه ويضاعف له فى آخرته » .

وكان الإيثار من شعار المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ولقد قالت بعض زوجاته رضى الله عنهن إنه صلى الله عليه وسلم : ما شبع ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا . « ولو شئنا لشبعنا ، ولكنا نؤثر على أنفسنا » وقد قال الله سبحانه وتعالى : (وَيُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِمْ ولَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) . ولقد كانت السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها خير من يؤثر على نفسها اقتداء بأبيها صلى الله عليه وسلم فى سنته وسيرته ، وحفاظاً لتلك الخلة الكريمة ، فهى من آل بيت عرفوا بالمروءة والإيثار ، وقد ذكر ابن الجورى : أن النبى صلى الله عليه وسلم صنع لفاطمة رضى الله عنها قميصاً جديداً ليلة عرسها وزفافها ، وكان لها قميص مرقوع ، وإذا بسائل على الباب يقول : أطلب من بيت النبوة قميصاً خلقاً ، فأرادت أن تدفع إليه القميص المرقوع ،

فتذكرت قوله تعالى : (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) ، فدفعت إليه القميص الجديد . فلما قرب الرفاف أتاها جبريل عليه السلام بقميص من سندس أخضر ، فما رأته نساء يهوديات حضرن الزفاف حتى أسلمن وأسلم بعدهن أزواجهن .

وفي مسامرات الشيخ الأكبر ، وفي تفسير البيضاوي عن عبد الله ابن العباس رضي الله عنهما قال في قوله تعالى : (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) إن الحسن والحسين رضي الله عنهما مرضا ، فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر ، فقال عمر لعلي : يا أبا الحسن ، لو نذرت عن ابنيك نذرا إن الله عافاهما . فقال : أصوم ثلاثة أيام شكرا لله . قالت فاطمة وأنا أيضا أصوم ثلاثة أيام شكرا لله ، وقال الصبيان : ونحن نصوم ثلاثة أيام ، وقالت جاريتهما فضة : وأنا أصوم ثلاثة أيام . فألبسهما الله العافية ، فأصبحوا صياما وليس عندهم طعام ، فانطلق علي إلى جار له من اليهود يقال له شمعون يعالج الصوف ، فقال له : هل لك أن تعطيني جزة من صوف تغزلها لك بنت محمد بثلاثة أصوع من شعير؟ قال : نعم . فأعطاه فجاء بالصوف والشعير ، فأخبر فاطمة فقبلت وأطاعت ، ثم غزلت تلك الصوف وأخذت صاعا من الشعير فطحنته وعجنته وخبزته خمسة أقراص لكل واحد قرص . وصلى علي رضي الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم المغرب ، ثم أتى منزله فوضع الخوان فجلسوا ، فحينما كسر علي رضي الله عنه أول لقمة إذ بمسكين وقف بالباب ، فقال : السلام عليكم يا أهل بيت محمد . أنا مسكين من مساكين المسلمين . أطعموني مما تأكلون ، أطعمكم الله من موائد الجنة ، فوضع علي اللقمة من يده ثم قال :

فاطم ذات المجد واليقين يابنت خير الناس أجمعين
أما ترين ثائس المسكين جاء إلى الباب له حنين
كل امرئ بكسبه رهين

فقالت فاطمة رضى الله عنها :

أمرك سمع يا بن عم وطاعه مالى من لوم ولا ضراعه
غذيت باللبّ وبالبرعه أرجو إذا أنفقت من مجاعه
أن ألحق الأبرار وأجاعه وأدخل الجنة فى الشفاعه

قال : فعمدت إلى ما فى الخوان فدفعته إلى المسكين ، وباتوا جياعاً ، وأصبحوا صياماً لم يذوقوا إلا الماء القراح . ثم عمدت إلى الثلث الثانى من الصوف فغزلته ، ثم أخذت صاعاً فطحنته وعجنته ، وخبزت منه خمسة أقراص لكل واحد قرص ، وصلى علىّ المغرب مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى منزله ، فلما وضعت الخوان وجلس سيدنا على رضى الله عنه ، وكسر أول لقمة إذا بيتيم من يتامى المسلمين قد وقف على الباب وقال : السلام عليكم أهل بيت محمد . أنا يتيم من يتامى المسلمين ، أطعمونى مما تأكلون ، أطعمكم الله من موائد الجنة . فوضع علىّ اللقمة من يده وقال :

أفاطم بنت السيد الكريم قد جاءك الله بذا اليتيم
من يطلب اليوم رضا الرحيم موعده فى جنة النعيم

فأقبلت السيدة فاطمة رضى الله عنها وقالت :

فسوف أعطيه ولا أبالى وأوثر الله على عيالى
أمسوا جياعاً وهم أمثالى أصغرهم يقتل فى القتال

ثم عمدت إلى جميع ما كان فى الخوان فأعطت اليتيم إياه ، وباتو جياعاً لم يذوقوا إلا الماء القراح ، وأصبحوا صياماً . وعمدت فاطمة إلى باقى الصوف فغزلته ، وطحنت الصاع الباقى وعجنته وخبزته خمسة أقراص ، لكل واحد قرص ، وصلى علىّ رضى الله عنه المغرب مع الرسول ، ثم أتى منزله ، فقربت إليه الخوان فجلس وعندما بدأ يكسر أول لقمة إذا بأسير من أسارى المسلمين بالباب فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد . إن الكفار أسرونا وقيدونا ولم يطعمونا ، فوضع علىّ اللقمة من يده وقال :

فاطمة ابنة النبى أحمد ... بنت نبى سيد مسوّد
هذا أسير جاء ليس يهتدى ... مكبل فى قيده المقيد
يشكو إلينا الجوع والتشدد ... من يطعم اليوم يجده فى غد
عند العلى الواحد الموحد ... ما يزرع الزارع يوماً يحصد

فأقبلت فاطمة رضى الله عنها تقول :

لم يبق مما جاء غير صاع ... قد دبرت كفى مع الذراع
وابنى والله لقد أجاعا ... يا رب لا تهلكهما ضياعا

ثم عمدت إلى ما كان فى الخوان فأعطته إياه ، فأصبحوا مفطرين وليس عندهم شىء .

وأقبل على وبناه نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن والحسين يرتعشان من شدة الجوع . فلما أبصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال يا أبا الحسن ، أشدّ ما يسوؤنى ما أدرككم . انطلقوا بنا إلى ابنتى فاطمة . فانطلقوا إليها وهى فى محرابها ، وقد لصق بطنها بظهرها من شدة الجوع ، وغارت عيناها ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمّها إليه وقال :

« واعوثاه ! أهل بيت محمد يموتون جوعاً » . ولم ينته الرسول صلى الله عليه وسلم من كلامه حتى هبط عليه أمين الوحي وهو يرفع إليه سورة (هل أتى) وفيها أجمل الثناء وعاطر الذكر لأهل البيت : قال الله سبحانه وتعالى : (إنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيرًا . فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا . وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا . مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيرًا . وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً . وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا . قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً . وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا . وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيرًا . عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا) .

لقد شكر الله سعيهم على هذا الإيثار الذى لا نظير له فى عالم المبرات والإحسان ، وأورثهم فى دار الآخرة الفردوس يتقلبون فى نعيمه ، وجعل ذكرهم خالداً ، وحياتهم قدوة ، وجعلهم أئمة لمسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن كتاب بشارة المصطفى لأبى جعفر الطبرى ، عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنه قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة ،

فلما انتقل جلس فى قبلته والناس حوله ، فبينما هم كذلك إذ أقبل شيخ من مهاجرة العرب ، وهو لا يكاد يتمالك ضعفاً وكبراً ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يستجليه الخبر ، فقال الشيخ : يا نبى الله ، أنا جائع الكبد فأطعمنى ، وعارى الجسد فاكسنى ، وفقير فأرشنى ، فقال : ما أجد لك شيئاً ، ولكن أدلّ على الخير كفاعله . انطلق إلى منزل من يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، ويؤثر الله على نفسه ، انطلق إلى حجرة فاطمة - وكان بيتها ملاصقاً بيت الرسول صلى الله عليه وسلم الذى ينفرد به لنفسه من أزواجه - يا بلال ، قم فقف به على منزل فاطمة . فانطلق الأعرابى مع بلال ، فلما وقف على باب فاطمة ، نادى بأعلى صوته : السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ، ومختلف الملائكة ، ومهبط جبريل الروح الأمين بالتنزيل من عند رب العالمين .

فقالت فاطمة : من أنت يا هذا ؟ قال : شيخ من العرب ، أقبلت على أبيك سيد البشر مهاجراً من شقة بعيدة ، وأنا يا بنت محمد عارى الجسد ، جائع الكبد ، فواسينى ، يرحمك الله تعالى . وكان لفاطمة وعلى رضى الله عنهما ورسول الله صلى الله عليه وسلم على تلك الحال ثلاث ليال ما طعموا فيها طعاماً . وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من شأنهما ، فعمدت فاطمة إلى جلد كبش مدبوغ بالقرظ كان ينام عليه الحسن والحسين ، فقالت : خذ هذا أيها الطارق ، فعسى الله أن يتيح لك ما هو خير منه ، فقال الأعرابى : يا بنت محمد ، شكوت إليك الجوع فناولتنى جلد كبش ، فماذا أنا صانع به مع ما أجده من سغب ؟ قال : فعمدت فاطمة رضى الله عنها ، لما سمعت هذا من قوله ، إلى عقد كان فى عنقها

أهدتها إياه فاطمة بنت عمها حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهم ، فنزعته من عنقها ، ودفعت به إلى الأعرابي ، وقالت : خذه وبعه ، فعسى الله أن يعوضك به ما هو خير منه ، فأخذ الأعرابي العقد وانطلق إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرسول جالس بين أصحابه ، فقال : يا رسول الله ، لقد أعطتني فاطمة بنت محمد هذا العقد ، وقالت : بعْهُ فعسى الله أن يعوضك ما هو خير منه ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام عمار ابن ياسر رضي الله عنهما ، فقال : يا رسول الله ، أتأذن لي بشراء هذا العقد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : اشتره يا عمار ، فلو اشترك فيه الثقلان ما عذبهم الله بالنار ، فقال عمار للأعرابي : بكم تبيع هذا العقد يا أعرابي ؟ قال : بشبعة من الخبز واللحم أذهب بها جوعتي ، وبردة يمانية أستر بها عورتي ، وأصلي فيها لربي ، وبدينار يبلغني إلى أهلي . وكان عمار قد باع سهمه الذي نفله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُبق منه شيئاً ، فقال : لك عشرون دينارًا ، ومائتا درهم ، وبردة يمانية ، وراحلتي تبلغك إلى أهلك ، وشبعة من خبز البر واللحم ، فقال الأعرابي : ما أسخاك بالمال أيها الرجل ! وانطلق به عمار رضي الله عنه فوفاه ما ضمن له ، وعاد الأعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشبعت واكتسيت ؟ فقال الأعرابي : نعم ، يا رسول الله ، واستغنيت . بأبي أنت وأمي ! فقال صلى الله عليه وسلم : فاحز فاطمة بصنيعها ، فقال الأعرابي : اللهم إنك إله ما استحدثناك ، ولا إله لنا نعبده سواك ، وأنت في كل حين ، اللهم أعط فاطمة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، فأمّن رسول الله صلى الله عليه وسلم على دعائه ، وأقبل على أصحابه ، فقال : إن الله

قد أعطى فاطمة فى الدنيا ذلك ، فأنا أبوها ، وما أحد من العالمين مثلى ، وعلىّ بعلها ، ولولا علىّ ما كان لفاطمة كفء أبدًا ، وأعطاها الحسن والحسين ، وما للعالمين مثلهما ، سيدا شباب أسباط الأنبياء ، وسيدا شباب أهل الجنة . وكان بإزائه المقداد وابن عمر وعمار وسلمان رضى الله عنهم ، فقال : وأزيدكم ؟ فقالوا : نعم ، يا رسول الله ، فقال : أتانى الروح الأمين جبريل ، وقال : إنها إذا هى قبضت ودفنت يسألها الملكان فى قبرها : من ربك ؟ فتقول : الله ربى . فيقولان : من نبيك ؟ فتقول : أبى .

ألا وأزيدكم من فضلها أن الله عز وجل وكل بها وعيلا من الملائكة يحفظونها من بين يديها ومن خلفها وعن يمينها وعن شمالها ، وهم معها فى حياتها وعند قبرها بعد موتها ، يكثرون الصلاة عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها ، فمن زارني بعد وفاتي فكأنما زارني فى حياتي ، ومن زار فاطمة فكأنما زارني ، ومن زار عليًّا فكأنما زار فاطمة ، ومن زار الحسن والحسين فكأنما زار عليًّا ، ومن زار ذريتهما فكأنما زارهما .

فعمد عمار إلى العقد وطيّبه بالمسك ، ولفه فى بردة يمانية ، وكان له عبد اسمه سهم ابتاعه من ذلك السهم الذى أصابه بخيبر . فدفع العقد إلى المملوك وقال له : خذ هذا العقد فادفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت له ، فأخذ العقد فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بقول عمار ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انطلق إلى فاطمة فادفع إليها العقد وأنت لها ، فجاء المملوك بالعقد وأخبرها بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذت فاطمة رضى الله عنها العقد ، وأعتقت المملوك ، فضحك الغلام .

فقالت فاطمة رضى الله عنها : ما يضحكك يا غلام ؟

فقال : أضحكني عظم بركة هذا العقد ، أشبع جائعاً ، وكسى عرياناً ، وأغنى فقيراً ، وأعتق عبداً ، ورجع إلى ربته .

وقد لمست الزهراء من أبيها صلى الله عليه وسلم حبه ومودته وحنوه وشفقته ، فكانت نعم البرة به صلى الله عليه وسلم ، أخلصت له في حبها وولائها وحنوها ووفائها له ، فآثرته على نفسها . وحين تقدمت السن بأمها كانت فاطمة رضى الله عنها هي التي تتولى تدبير بيت أبيها صلى الله عليه وسلم ، تقوم بإدارته ، وتنجز ما يصلحه ، ويبعث الهدوء والروعة فيه ، وكانت تسارع إلى كل ما يرضي أباها رسول الله صلى الله عليه وسلم : تسكب له الماء ليغتسل ، وتهيئ له طعامه ، وتغسل ثيابه ، فوق ما كانت تشترك مع النساء في الغزو ، ففي غزوة أحد خرج محمد بن مسلمة يطلب مع النساء ماء ، وكن قد جئن أربع عشرة امرأة منهن فاطمة عليها السلام يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ، ويسقين الجرحى ويداوينهم ومنهن أم سليم بنت ملحان ، وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهما ، تحملان على ظهورهما القرب ، ومنهن حمنة بنت جحش ، وكانت تسقي العطشى وتداوي الجرحى ، ومنهن أم أيمن تسقي الجرحى ، فلم يجد محمد بن مسلمة عند النساء ماء . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عطش عطشاً شديداً ، فذهب محمد بن مسلمة إلى قناة حتى استقى من حسى ، فأتى بماء عذب ، فشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير ، وجعل الدم لا ينقطع ، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لن ينالوا منا مثلها حتى تستلموا الركن » ، فلما رأت فاطمة عليها السلام الدم لا يرقأ وهي تغسله ، وعلي يصب الماء عليها بالمجن ، أخذت قطعة حصير فأحرقتها حتى صارت رماداً ، ثم ألصقتها بالجرح

فاستمسك الدم ، وكان هذا الحصير يعمل من البردى ، وكانت حين رأت الذى بوجه أبيها صلى الله عليه وسلم اعتنقته ، وجعلت تمسح الدم ، والأسى يملكها لبرها بأبيها وحفاظاً لحقه . وعن على رضى الله عنه ، قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حفر الخندق ، إذ جاءته بكسرة من خبز فرفعتها إليه ، فقال : ما هذه يا فاطمة ؟ قالت : من قرص اختبزته لابنى ، جئتك منه بهذه الكسرة فقال : يا بنية أما إنها لأول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام [1] .

وروى الزمخشرى فى الكشاف عند قصة زكريا ومريم عليهما السلام ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه جاع فى زمن قحط ، فأهدت له فاطمة رغيفين وبضعة لحم آثرته بها ، فرجع بها إليها ، وقال : هلمى يا بنية . وكشف عن الطبق ، فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً ، فبهتت ، وعلمت أنها نزلت من الله سبحانه وتعالى ، فقال لها : أنَّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فقال : الحمد لله الذى جعلك شبيهة سيدة نساء بنى إسرائيل . ثم جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته رضى الله عنهم حتى شبعوا ، وبقى الطعام كما هو ، وأوسعت فاطمة جيرانها .

أما منزلتها وقدرها عند أبيها صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت رضى الله عنها بالمحل الأرفع من أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد حضر أبو سفيان إلى بيت فاطمة قبل فتح مكة مستنجداً مستجيراً ، فإن قريشاً - حين أحست بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يتركها أن نقضت عهده وحفرت ذمته -

(١) كانت هذه الرواية أول ماسمعته فى المدينة المنورة عند زيارتى

أرسلت أبا سفيان ليكون رسول سلام ، ويعمل على تأخير الزحف ، فقصد أبا بكر وعمر وعثمان فلم يغنوا عنه من الأمر شيئاً ، فسار إلى بيت فاطمة ، فدخل عليها ، وكلمها فى أن تجير بين الناس ، مما هو آية على نفوذ فاطمة عند والدها ، ولولا ذلك لما مشى كبير قريش وزعيمها إليها ليسألها الوساطة وأن تجيره ، وقد أبت عليه فاطمة ذلك وقالت : إنما أنا امرأة ، ولا يجير على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد ، فلم تشأ أن تفتات على أبيها ، وهى تعلم أنها لو أجارت أبا سفيان لقبل أبوها صلى الله عليه وسلم جوارها ، وكانت بمثابة أمن وسلام ، ولكنها وهى الحريصة على حق أبيها صلى الله عليه وسلم وما يجب عليها نحوه - أبت أن تساير أبا سفيان فيما يطلبه ، وهو يعلم أنها لو أجارته لما وقف أمامها أحد ، ولنفذ أبوها صلى الله عليه وسلم وعدها ، وأوفى بعهدها . وهكذا أدب أولاد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

ولما أجارت أم هانئ بنت أبي طالب حموين لها : عبد الله بن أبي ربيعة والحارث بن هشام المخزوميين ، دخل عليها أخوها على بن أبي طالب يريد قتلها ، وقال : تجيرين المشركين ؟ فأغلقت عليهما بيتاً ، ثم ذهبت إلى خباء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبطحاء ، فشكت إلى فاطمة عليها السلام ما أتاه علىّ ، فلم تشكها ذلك إلا لما تعرفه من قدر فاطمة عند أبيها وزوجها ، ولكن فاطمة رضى الله عنها ما كانت ترضى إلا بما يرضاه الله تعالى ، فلا ترضى أن يجير على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد .

ولما قدم وفد نجران ، وأرسل نصارى نجران العاقب والسيد فى نفر لمباهلة رسول الله صلى الله عليه وسلم . خرج الرسول ومعه فاطمة وعلى والحسن والحسين عليهم السلام ، فلما رأوهم قالوا : هذه وجوه لو أقسمت على الله

أن يزيل الجبال لأزالها . ولم يباهلوا ، وصالحوا على ألفى حلة ثمن كل حلة أربعون درهماً ، وعلى أن يضيفوا رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل لهم عليه الصلاة والسلام ذمة الله وعهده ، على ألاَّ يفتنوا عن دينهم ، ولا يبشروا ولا يحشروا ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به .

وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها : كانت فاطمة إذا دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فقبلها ورحب بها وأخذ بيدها وأجلسها فى مجلسه ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأخذت بيده وأجلسته فى مجلسها ، وكان الرسول دائماً يخصها بسره ، ويرجع إليها فى أمره .

زواج السيدة فاطمة :

إن السيدة الزهراء لما أنارت فى سماء الرسالة شمس جمالها ، وتم فى أفق الجلالة بدر كمالها ، امتدت إليها مطالع الأفكار ، وتمت النظر إلى حسنها أبصار الأخيار [1] ، وأحس صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم بقيمة فاطمة لدى أبيها ، وعلموا أنها بلغت مرحلة النضج بكل أبعادها ، فتباروا لخطبتها من أبيها ، طلباً للشرف ، ورغبة فى الكرامة ، وحرصاً على التقرب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وكان لا بد لكبار الصحابة أن يتقدموا لطلبها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى طليعتهم أبو بكر وعمر وغيرهما . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعرض فى كل مرة بوجهه عنهم ، بعد أن يتصل بالزهراء نفسها فتظهر عدم رغبتها ورفضها لعرض الخطبة

---

(١) الزهراء : للأستاذ عبد الزهراء عثمان محمد .

والرسول صلى الله عليه وسلم لم يتصل بالزهراء فى هذه القضايا لأنه لا يعلم من يستحق أن يكون لها كفؤا ، ولكن روح الشريعة الإسلامية هى التى تفرض على الآباء ألا يبتوا فى موضوع زوج بناتهم وأبنائهم دون الاطلاع على مدى رغبتهم أو رفضهم للفتيات إن كانوا رجالاً ، أو رغبتهن أو رفضهن فيما لو كنّ نساءً . والرسول صلى الله عليه وسلم إنما يعكس لنا واقع الشريعة المقدسة ومعين الرسالة الإلهية القويمة الذى يفرض ذلك ويرسمه للمجموعة الإنسانية لخلق الأسرة الصالحة المتحابة المتعانقة القلوب والعواطف ، لكى يخلق المجتمع الصالح المتين المتكاتف كالبنيان المرصوص بدون أن تلعب به الأهواء .

وستمر الرسول عليه الصلاة والسلام يعرض بوجهه عمن يخطب ابنته الزهراء عليها السلام ويرده بقوله : « أنتظر فيها أمر القضاء .

وفى أسد الغابة أنها لما خطبها أبو بكر وعمر فردهما قال لكل منهما « أنتظر بها القضاء » أو قال : « إنها صغيرة » .

ولله در من قال :

من مثل فاطمة الزهراء فى نسب ... وفى فخار وفى فضل وفى حسب
ولله فضلها حقّاً وشرفهـا ... إذ كانت ابنة خير العجم والعرب

ويقول السيد محمد صادق الصدر فى كتابه حياة أمير المؤمنين ، وكان أبو بكر أول من عرض إلى خطبة الزهراء عليها السلام فرده الصادق الأمين ردّاً جميلاً مقنعاً قائلا : « يا أبا بكر لم ينزل القضاء بعد »[1] ! وقد سمع بالأمر عمر فتقدم إلى النبىّ الكريم صلى الله عليه وسلم بما تقدم

(١) دكتر بعلى

إليه رفيقه وصاحبه فأعاد عليه الجواب نفسه وعندئذ ذهب أبو بكر وأبو حفص إلى عبد الرحمن بن عوف يطلبان منه الخطبة وقالا له : « أنت أكثر قريش مالاً فلو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطبت فاطمة زادك الله مالاً إلى مالك وشرفاً إلى شرفك فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله زوجني فاطمة فأعرض عنه رسول الله فأتاهما فقال قد نزل بي مثل الذي نزل بكما » وهنا فهما أن رسول الله لا يطلب مالاً وإنما يطلب علماً وفضلاً فمن هو ذلك الرجل الذي يتصف بصفات تميزه على غيره وتجعله كفؤاً لأن يكون صهراً للرسول وبعلاً للزهراء البتول ؟ ! هذا ما كان يفكر به الشيخان لذلك كانا يرغبان رغبة ملحة في معرفة تلك الشخصية العظيمة القريبة من الله والحبيبة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فتوجها إلى علي عليه السلام لأنهما يعرفان منزلته الرفيعة عند الله والرسول — وقالا له : « قد عرفنا قرابتك من رسول الله وقدمك في الإسلام فلو أتيت رسول الله فخطبت إليه فاطمة لزادك الله فضلاً إلى فضلك وشرفاً إلى شرفك »[1] وقال غيرهما من أصحاب الرسول كما روى ذلك أنس بن مالك لعلي : « لو خطبت إلى النبي لخليق أن يزوجكها »[2] .

وفي يوم اجتمع الصديق والفاروق وسعد بن معاذ رضوان الله عليهم في مسجد الرسول ، فتذاكروا أمر فاطمة رضي الله تعالى عنها ، فقال أبو بكر : قد خطبها الأشراف فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويحدثنا ابن عباس فيقول : « كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله

---

(١) كفاية الطالب

(٢) ذخائر العقبى ص ٣٠ .

عليه وسلم تُذكر فلا يذكرها أحد لرسول الله إلا أعرض عنه فقال سعد بن معاذ الأنصارى لعلى بن أبى طالب : إني والله ما أرى رسول الله يريد بها غيرك [١] ومن هنا نعلم أن الكلمة قد أجمعت على أن الرجل المنتظر مثل هذا الزواج هو على عليه السلام .

ولماذا لا يكون هو ذلك الرجل ؟ ! وهو أقرب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسبقهم إلى الإسلام . وأقدمهم فى الإيمان وأعلمهم بالسنة وأكبرهم تضحية وأشدهم إخلاصاً لله ولرسول وللدين .

ومن كانت هذه صفاته فهو جد قريب من أذهان الناس عندما تعرض الأسماء وتستعرض الشخصيات الكبيرة التى تطمع بهذا القران .

ويستمر أستاذنا محمد صادق الصدر فى رسالته فيقول : إن إجماع الأصحاب على أن يخطب الإمام الزهراء يدل دلالة واضحة على أن له منزلة فى نفوسهم . وفى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن لواحد منهم ولا سيما إذا علمنا أن هذا الطلب جاء بعد رفض الرسول صلى الله عليه وسلم لطلبهم وإعراضه عنهم .

وأقبل الإمام علىّ على الرسول صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة وطرق الباب فقالت من بالباب – فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « قومى وافتحى الباب له - هذا رجل يحبه الله ورسوله ويحبهما) .

فقالت : فداك أبي وأمى ، ومن هذا ؟

فقال : هذا أخى وأحبّ الخلق إلىّ .

قالت أم سلمة : فقمت مبادرة أكاد أعثر فى مرطى ، ففتحت الباب ،

(١) كفاية الطالب

فإذا بعلى بن أبي طالب رضى الله عنه وكرم وجهه ، فوالله ما دخل حتى علم أني قد رجعت إلى خدرى ، فدخل وسلم ، فردّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال له : أجلس ، فجلس بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعل يطرق إلى الأرض كأنه قاصد حاجة يستحى منه .

فقال له الرسول : يا على كأنك قاصد حاجة ، فابدأ بما فى نفسك ، فكل حاجتك عندى مقضية .

فقال على رضى الله عنه : فداك أبي وأمى يا رسول الله . إنك لتعلم أنك أخذتنى من عمك أبي طالب ، ومن فاطمة بنت أسد ، وأنا صبيّ لا أعقل شيئاً ، فهديتنى وأدّبتنى وهديتنى ، فكنت أفضل من أبى طالب وفاطمة بنت أسد فى البر والشفقة ، وإن الله عز وجل هدانى بك ، واستنقذني مما كان عليه آبائى وأعمامى من الشرك ، وإنك يا رسول الله ذخرى ووسيلتى فى الدنيا والآخرة ، وقد أحببت ، مع ما شد الله عز وجل بك من عضدى أن يكون لى بيت وزوجة أسكن إليها ، وقد أتيتك خاطباً ابنتك فاطمة ، فهل تزوجنى يا رسول الله ؟

قالت أم سلمة : فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تهلل فرحاً وسروراً ، ثم تبسم فى وجه على وقال : « يا على هل معك شيء تصدقها ؟ » ، قال : والله ما يخفى عليك حالى ، ولا شيء من أمرى . ما أملك غير درعى وسيفى وناضحى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما سيفك فلا غنى لك عنه ، تجاهد به فى سبيل الله ، وأما ناضحك : فتنضح عليه لأهلك ، وتحمل عليه رحلك فى سفرك ، ولكن زوّجتك على درعك » .

ورضيت به منك ، وأبشر يا أبا الحسن ، فإن الله عز وجل قد زوجك بها فى السماء قبل أن أزوجك بها فى الأرض .

وفى رواية أن عليًا لما سأله النبى : هل عندك من شيء ؟ قال : كلا . فقال له : وأين درعك الحطمية ؟ أى التى تحطم السيوف . وكان النبى قد أهداه إياها ، فباعها وباع أشياء أخرى كانت عنده فاجتمع له منها أربعمائة درهم .

وجاء فى أنساب الأشراف للبلاذرى : « فباع بعيرًا له ومتاعاً فبلغ من ذلك أربعمائة وثمانين درهماً ، ويقال أربعمائة درهم ، فأمره أن يجعل ثلثها فى الطيب ، وثلثها فى المتاع ، ففعل » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : « كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغشيه الوحى ، فلما أفاق قال لى : يا أنس ، أتدرى ما جاء به جبريل عليه السلام من صاحب العرش عز وعلا ؟ قلت : بأبى أنت وأمى . ما جاءك به جبريل ؟ قال : قال لى : إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تزوج فاطمة من على ، فانطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار . فانطلقت فدعوتهم ، فلما أن أخذوا مجالسهم قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المرهوب إليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته ، ونوّرهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لاحقاً ، وأمراً مفترضاً ، وحكماً عادلاً وخيراً جامعاً أوشج بها الأرحام ، وألزمها الأنام ، فقال الله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ

نسباً وصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً) ، وأمر الله يجرى إلى قضائه ، وقضاؤه يجرى إلى قدره ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من عليّ ، وأشهدكم أني زوجت فاطمة من عليّ على أربعمائة مثقال فضة ، إن رضى بذلك ، على السنة القائمة والفريضة الواجبة .

فجمع الله شملهما ، وبارك لهما ، وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ، ومعادن الحكمة ، وأمن الأمة . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » . تناقل الناس هذه الخطبة البليغة – وكانت حديث الأندية والمجالس وما أنكر الناس شيئاً من هذا الأمر لأنه أمر طبيعي في أنظارهم وقد كانوا يتوقعونه – وينتظرون أمر الله فيه ، فعليّ أول من أسلم وعليّ أول من صلى وعليّ أول من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله وليس حديث الهجرة ومبيته على فراش النبي ببعيد فإن هذا الزواج وقع بعد الهجرة بشهرين – والله لا محالة – سيختار للزهراء من أصحاب رسول الله من كان يتصف بهذه الصفات البارزة التي اختص بها علي وكان هذا الوحي من الله تعالى العلي القدير أكبر مكافأة له على موقفه في مبيته على الفراش الذي حفظ به النبي وحفظ بحفظه الإسلام دين الله الذي أرسل فيه النبي مبشراً ونذيراً .

وكان عليّ رضي الله عنه غائباً في حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد بعثه فيها ، ثم أمر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بطبق فيه تمر ، فوضع بين أيدينا ، وأقبل عليّ رضي الله عنه ، فتبسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا عليّ إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة ، وإني قد زوجتكها على أربعمائة مثقال فضة . فقال علي : رضيت يا رسول الله ، وخرّ الإمام عليّ

ساجدا شكرًا لله . فلما رفع رأسه قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « بارك الله لكما ، وعليكما ، وأسعد جدكما ، وأخرج منكما الكثير الطيب » .

وعن ابن مردويه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلى : تكلم خطيباً لنفسك : فقال : « الحمد لله الذى قرب من حامديه ، ودنا من سائليه ، ووعد الجنة من يتقيه ، وأنذر بالنار من يعصيه ، نحمده على قديم إحسانه وأياديه ، حمد من يعلم أنه خالقه وباريه ، ومميته ومحييه ، وسائله عن مساويه ، ونستعينه ونستهديه ، ونؤمن به ونستكفيه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تبلغه وترضيه ، وأن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم صلاة تزلفه وتحظيه ، وترفعه وتصطفيه ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجنى ابنته فاطمة على خمسمائة درهم ، فاسألوه واشهدوا » . قال رسول الله عليه وسلم : قد زوجتك ابنتى فاطمة على ما زوجك الرحمن جل جلاله ، وقد رضيت بما رضى الله تعالى ، فنعم الختن أنت ، ونعم الصاحب أنت وكفاك برضا الله تعالى رضًا .

قال أنس : والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب .

وإلى زواجها بوحى من الله يقول الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه :

أتى الوحى أن تجلى عروساً لحيدر
فيا شرفاً أضحى به الكون مفترا
ليهن بنيه المجـــد نظم هكذا
نبى الهدى فاطرب وحيدر والزهرا

وبكل ما للبساطة من معنى تم الزواج الميمون . وقيل إن الصداق كان درعاً حطمية باعها الإمام عليه السلام بأربعمائة وثمانين درهماً ، وأتى بالمبلغ

ووضعه بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم . ووزع النبى صلى الله عليه وسلم المبلغ على النحو الآتي :

١٦٠ درهماً لشراء العطور

١٦٠ درهماً لشراء الثياب

٦٦ درهماً لمتاع البيت

٩٦ درهماً دفعها إلى أم سلمى لتبقيه لديها

وكان أن كلف بلالا لشراء العطور ، كما أنه اختار هيئة لشراء الثياب والمتاع من بينهم أبو بكر وعمار بن ياسر ، فاشترت الهيئة الجهاز التالى :

قميصاً بسبعة دراهم – خمارًا بأربعة دراهم – قطيفة سوداء خيبرية – سريرًا ملفوفاً بشريط من الخوص – فراشين من خيش مصر حشو أحدهما ليف وحشو الآخر من صوف الغنم – أربع مرافق (متكآت) من أدم الطائف حشوها إذخر ، وهو نبات طيب الرائحة – سترًا رقيقاً من الصوف حصيرًا هجريًّا - رحى يد – مخضباً من نحاس لغسل الثياب - قربة صغيرة – قدحاً من خشب – قربة صغيرة لتبريد الماء – مطهرة (إناء مزفت) – جرة خضراء – كيزاناً من خزف - بساطاً من الجلد – عباءة قطوية

وحملت الهيئة هذا الجهاز إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما عُرض عليه جعل يقلبه بيده ويقول « بارك الله لأهل البيت » وفى رواية أخرى أنه قال : « اللهم بارك لقوم جلّ آنيتهم الخزف » .

أما الإمام علىّ عليه السلام فقد اقتصر إعداده لبيت الزوجية على ما يلى :

فرش حجرة النوم بالرمل الناعم - نصب خشبة من حائط إلى حائط -

إهاب كبش ومخدة ليف وضعها على الأرض منشفة علقها على الحائط – وضع على الأرض قربة ماء ومنخلا لنخل الدقيق .

هذه الصورة الناصعة من تزويج الزهراء تنقلنا إلى المبدأ الإسلامى العظيم فى التخفيف عن كاهل الأزواج بالنسبة إلى المهور والإعداد لبيت الزوجية وهو الحل الحاسم لكثير من المشكلات الاجتماعية الجنسية التى يضج العالم المتمدن منها .

أجل ، بهذه الصورة البسيطة تم التزويج . . .

وفى ليلة الزفاف أتى الرسول صلى الله عليه وسلم ببغلته الشهباء ، وثنى عليها قطيفة ، وقال لفاطمة : اركبى فأركبها ، وأمر سلمان أن يقود بها ، ومشى صلى الله عليه وسلم خلفها ، ومعه حمزة وعقيل وبنو هاشم مشهرين سيوفهم ، وأمر بنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يمضين فى صحبة فاطمة ، وأن يفرحن ويرجزن ويكبرن ويحمدن ولا يقلن ما لا يرضى الله ، ونساء النبى صلى الله عليه وسلم معها ، فأنشأت أم سلمة ترجز وتقول :

سرن بعون الله جاراتى واشكرنه فى كل حالات
واذكرن ما أنعم رب العلا من كشف مكروه وآفات
فقد هدانا بعد كفر وقد أنعشنا رب السماوات
وسرن مع خير نساء الورى تقدى بعمات وخالات
يا بنت من فضله ذو العلا بالوحى منه والرسالات

ثم قالت عائشة :

يا نسوة استرن بالمعاجر واذكرن ما يحسن فى المحاضر

واذكرن رب الناس إذ خصّا بديه مع كل عبد شاكر
والحمد لله على أفضاله والشكر لله العزيز القادر
سرن بها فالله أعلى ذكرها وخصها منه بطهر طاهر

ثم قالت حفصة رضى الله عنها :

فاطمة خير نساء البشر ومن لها وجه كوجه القمر
فضلك الله على كل الورى بفضل من خص بآى الزمر
زوجك الله فتى فاضلا أعنى عليًّا خير من فى الحضر
فسرن جاراتي بهـا فإنها كريمة عند عظيم الخطر

ثم قالت معاذة ، واسمها كبشة بنت رافع ، وهى أم سعد بن معاذ الأنصارى الأوسى رضى الله عنهما :

أقول قولا فيه ما فيـه وأذكر الخيـر وأبديه
محمد خير بنى آدم ما فيه من كبر ولاتيه
بفضله عرفنا رشـدنا فالله بالخـير يجازيه
ونحن مع بنت نبيّ الهدى ذو شرف قد مكنت فيه
فى ذروة شامخة أصلها فما أرى شيئاً يدانيه

وعن بلال بن حمامة قال : « طلع علينا النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم ووجهه مشرق كدارة القمر ، فقام عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول الله ، ما هذا النور ؟ فقال : بشارة أتتنى من ربي فى أخى وابن عمى وابنتى ، فإن الله زوج عليًّا من فاطمة ، وأمر رضوان خازن الجنان فهزّ شجرة طوبى فحملت رقاعاً - يعنى صكاكاً - بعدد محبى أهل بيتى ، وأنشأ من

تحتها ملائكة من نور ، ودفع إلى كل ملك صكًّا ، فإذا استوت القيامة بأهلها نادت الملائكة فى الخلائق ، فلا تلقى محبًّا لنا أهل البيت إلا دفعت له صكًّا فيه فكاكه من النار ، فأخى وابن عمى وابنتى بهم فكاك رقاب رجال ونساء من أمتى من النار » .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا شجرة ، وفاطمة فرعها ، وعلىّ لقاحها ، والحسن والحسين ثمرتها ، وشيعتنا ورقها ، فالشجرة أصلها فى جنة عدن ، والأصل والفرع واللقاح والثمر والورق فى الجنة » .

ولأحد الشعراء فى هذا المعنى قوله :

يا حبذا دوحة فى الخلد ثابتة ... ما مثلها نبتت فى الخلد من شجر
المصطفى أصلها والفرع فاطمة ... ثم اللقاح علىّ سيد البشر
والهاشميان سبطاه لها ثمر ... والشيعة الورق الملتف بالثمر
إنى بحبهم أرجو النجاة غدًا ... والفوز فى زمرة من أفضل الزمر
هذا مقال رسول الله جاء به ... أهل الرواية فى العالى من الخبر

وفى رواية أن الرسول دخل على الزهراء فوجدها تبكى ، فقال : مالك تبكين يا فاطمة ؟ فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً ، وأفضلهم حلماً ، وأولهم سلماً .

ويعلق الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد على بكاء السيدة الزهراء — فيقول : « فإذا كان للخبر الذى جاء فى أنساب الأشراف للبلاذرى أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد وجد الزهراء باكية ، وليس فى ذلك غرابة ، لأننا لا نتخيل فتاة فى مثل موقفها لا يبكيها ما تثيره فى نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها ، وقد فارقتها

أمها وهى حبيبة صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها وإلطافها لها فى رخائها وعسرها ، ثم يكون يوم الفصال فى غربة من الأم ، ومن البيت الذى لزمتها فيه ، ومن البلد الذى يحتويه — فإن جهدنا أن نتخيل أن فتاة لاتبكى حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقترب من اليوم الفاصل بين معيشتها فى كنف أبيها ، ومعيشتها فى غير كنفه ، فموضوع الغرابة أن نتخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين ، ومثل النبى صلى الله عليه وسلم الذى كانت كبرى فضائله أنه إنسان عظيم ، وأنه كان أباً مكلوم الفؤاد ، لن يفوته ذلك الخاطر فى ذلك اليوم ، ولن يسكت عنه إلا عامدًا عالماً بما يلعجه فى النفس من الحزن والشجن ، فمن اللطف بالفتاة الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله عليه السلام :

« مالك تبكين يا فاطمة ؟ فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً ، وأفضلهم حلماً ، وأولهم سلماً » .

ويكاد يكون من المتفق عليه أن الزهراء قد استشيرت فى زواجها ، على عادة النبى صلى الله عليه وسلم فى زواج بناته ، كما جاء فى مسند ابن حنبل ، فيقول لها : فلان يذكرك ، فإن سكتت أمضى الزواج ، وإن نقرت الستر علم أنها تأباه

وفى طبقات ابن سعد : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتح (أى على علىّ ليلة زفافه) ، فخرجت إليه أم أيمن ، فقال : أتم أخى ؟ فقالت : وكيف يكون أخاك ، وقد أنكحته ابنتك ؟ قال : فإنه كذلك . ثم قال : أأسماء بنت عميس ، قالت : نعم ، قال : جئت تكرمين بنت رسول الله ، قالت : نعم ، فقال لها خيرًا ، ودعا لها .

وروى أنه قال : اللهم إنهما أحب إليّ فأحبهما ، وبارك فى ذريتهما ، واجعل عليهما منك حافظاً ، وإني أعيذهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم ، ودعا لفاطمة فقال : أذهب الله عنك الرجس وطهرك تطهيراً .

وفى رواية أنه قال : اللهم هذه ابنتى وأحبّ الخلق إليّ ، اللهم وهذا أخي وأحب الخلق إليّ ، اللهم احعله لك ولياً ، وبك حفياً ، وبارك له فى أهله ، ثم قال : يا علىّ ، ادخل بأهلك ، بارك الله تعالى لك ، ورحمة الله وبركاته عليكم ، إنه حميد مجيد ، ثم خرج من عندهما ، فأخذ بعضادتي الباب فقال : طهركما الله وطهر نسلكما ، أنا سلم لمن سالمكما وحرب لمن حاربكما ، أستودعكما الله ، وأستخلفه عليكما ، ثم أغلق عليهما الباب بيده الكريمه .

واختلف فى سنها وقت الزواج . فقيل : إن عمرها حين تزويجها تسع سنين أو عشر سنين أو إحدى عشرة سنة ، لأنها تزوجت بعلىّ عليهما السلام بعد الهجرة بسنة . وقيل بستتين

وفى المناقب ولدت فاطمة بعد النبوة بخمس سنين ، وأقامت مع أبيها بمكة ثماني سنين ، ثم هاجرت إلى المدينة ، فزوجها من علىّ بعد مقدمها المدينة بسنتين بعد بدر ، وفى الاستيعاب كانت سنها يوم تزويجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ، وكانت سن علىّ إحدى وعشرين سنة .

والأرجح – كما يقول أبو الفرج الأصبهانى ، ورواه ابن حجر فى الإصابة ، وابن سعد فى الطبقات – أن تزويجها بعد مقدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة بخمسة أشهر . ويوم بنى علىّ بفاطمة كانت سنها ثماني عشرة سنة . وإذا كانت الروايات قد اتفقت على أن الزهراء قد ولدت فى

سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية ببضع سنوات ، فبذلك يكون أصح الأخبار أنها عليها السلام قد تزوجت وهي في الثامنة عشرة .

وفي ظل الرسول عليه الصلاة والسلام انتظمت حياة سيدنا عليّ والسيدة الزهراء عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته ، فقد كان رزق عليّ من وظيفة الجندي وعطائه من فيء الجهاد ، ولكن بالرغم من هذا كان الإمام من الفقر بحيث لم يستطع أن يستأجر لها خادماً تعينها أو تقوم عنها بالعمل الشاق ، وكثيرًا ما كان يجنّ الليل فيرقدان على فراشهما الخشن . ويحولان النوم فلا يجدان إليه سبيلاً لفرط ما يشعران به من البرد ، ويقبل عليهما الرسول وقد انكمشا في غطائهما مقرورين ، إذا غطيا رأسيهما بدت أقدامهما ، وإذا غطيا أقدامهما انكشف رأساهما ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصحهما بقوله : « كلمات علمنيهن جبريل ، تسبحان الله في دبر كل صلاة عشرًا ، وتحمدان عشرًا ، وتكبران عشرًا . وإذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثاً وثلاثين ، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين ، وتكبران ثلاثاً وثلاثين . ويقول الإمام عليّ : « والله ما تركتهن منذ علمنيهن » .

على أن البيت الصغير ما لبث أن سعد بالذرية الصالحة ، وقد رزق الأبوان الفقيران نصيباً صالحاً من البنين والبنات : الحسن ، والحسين ، ومحسن ، وزينب ، وأم كلثوم ، وأسماء الحسن والحسين ومحسن من اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما زينب وأم كلثوم فسميتا باسم خالتيهما إحياء لذكرى الراحلتين العزيزتين زينب وأم كلثوم اللتين فقدتهما السيدة الزهراء رضي الله عنها بدون أن تنسى عطفهما عليها حين كانت طفلة في مدارج الصبا . كما سبق وبينت ذلك بالتفصيل .

وسنرى إن شاءَ الله ، فى الأجزاء القادمة مدى حب الرسول صلى الله عليه وسلم لسبطيه الحسن والحسين اللذين قال فيهما : « إنهما ابناى وابنا ابنتى ، اللهم إني أحبهما وأحبّ من يحبهما » ، وكان من عادة الرسول أن يبيت عندهم حيناً بعد حين ، ويخدم الأطفال بنفسه . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يترك مجلسه بين الصحابة ليتولى كل خلاف ينشأ بين الزوجين ، وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم رئى ذات مساء وهو يسعى إلى دار ابنته فاطمة بادى الهمّ والقلق ، فأمضى وقتاً هناك ، ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشراً ، فقال قائل من الصحابة : « يا رسول الله ، دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر فى وجهك ؟ فأجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولم لا ! وقد أصلحت بين أحب الناس إلىّ ؟ »

وحدث أن ضاقت الزهراء بما تجد من شدة زوجها وصلابته فقالت له : « والله لأشكونّك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وخرجت وعلىّ فى أثرها حتى جاءت أباها ، فشكت إليه ما أنكرت من زوجها ، فتلطف الأب فى ترضيها وأوصاها بالرفق بعلى . وقال الإمام وهو يصحب زوجته إلى بيتهما : « والله لا آتى شيئاً تكرهينه أبداً » .

وحدث أن بلغ العتاب بين الزوجين ما يبلغه من خصومة بين زوجين ، حين نمى إلى فاطمة أن علياً يهمّ بالزواج من بنت[1] عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى ، وفى حسبان علىّ أنه إنما يجرى على مألوف عادة قومه فى الجمع

---

(١) اسم بنت أبي جهل التى خطبها على « جويرية » ، وقد أسلمت وبايعت ، ولما ترك على خطبتها تزوجها عتاب بن أسيد أمير مكة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فولدت له عبد الرحمن ، فقتل يوم الجمل ، ولما أن توفى عتاب تزوج بها أبان بن سعيد بن العاص .

بين زوجتين وأكثر ، ويفعل ما أباحه له الإسلام من تعدّد الزوجات ، بدون أن يخطر بباله أن هذا ما تنكره بنت نبي الإسلام . وذهبت الزهراء إلى أبيها باكية تقول : « يزعمون أنك لا تغضب لبناتك » . وأقبل الرسول صلى الله عليه وسلم على المسجد مغضباً ، وصعد المنبر توًّا ، وقال على ملأ من الحاضرين : « ألا إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم عليًّا ، ألا وإني لا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إنما فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ، ويؤذيني ما آذاها ، وإني أخوف أن تفتن في دينها » .

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد فاطمة فقال : « من عرف هذه فقد عرفها ، ومن لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد ، وهي بضعة مني ، وهي قلبي ، وهي روحي التي بين جنبي ، من آذاها فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله » .

ويؤيد المرحوم الأستاذ العقاد هذه القصة وإن كان غيره من المحققين ينفيها نفياً باتًّا كما سنرى بعد قليل ، ويقول العقاد في كتابه (فاطمة الزهراء والفاطميون) بأن الحياة الزوجية كانت بين الإمام والزهراء ، لم تتعرض لخلاف غير الذي أشار إليه من عزم الإمام على خطبة بنت أبي جهل ، وقد أوضح بأن هذه الخطبة جاءت في روايات مختلفة واحتمل المرحوم العقاد في أسبابها أنها [لعلها غضبة من غضبات عليّ على أنفة من أنفات فاطمة أو لعلها نازعة من نوازع النفس البشرية لم يكن في الدين ما يأباها وإن أباها العرف في حالة المودة والصفاء] .

كما تؤيد الدكتورة بنت الشاطئ هذه القصة وتقول :

لكن كيف والإسلام يبيح تعدد الزوجات ، ومحمد صلى الله عليه

وسلم كان يجمع فى بيته يومئذ بين زوجات ثلاث ، فيهن عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب الذى أعز الله به الإسلام ؟ كيف يحرم النبي ما أحله الله ، وينكر على ابن عمه ما لم ينكره على نفسه ؟ ليكن هذا الزواج مؤذياً لفاطمة ، أفلم تتعرض لمثله بنتا أبى بكر وعمر ؟ وهل يأبى النبي أن يجوز على ابنته ما يجوز على كل مسلمة وهو القائل فى المرأة السارقة : « لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » ؟ وقد كان هـذا الموقف من أصعب المواقف ، إنه موقف مملوء بالدقة والصعوبة والحرج .

فالرسول صلى الله عليه وسلم يعلم حق عليّ فى الزواج ، ولكن الرسول فى أبوته الرحيمة يؤذيه أن تروع أحب بناته بضرّة ، ويشفق عليها من تجربة قاسية كهذه يعلم أنها لا قبل لها باحتمالها ، ثم إن علياً أراد أن يتزوج بنت « عمرو بن هشام المخزومى » ، فهل يرضى الله أن يجمع بيت عليّ بين بنت رسول الله وبنت عدوه ؟

ومن هو عمرو هذا ؟ هو أبو الحكم بن هشام ، أو هو أبو جهل ، الذى لم ينس الرسول والمؤمنون ما اقترف من آثام فى اضطهاد الدعوة الإسلامية . فهو عدو الله الذى قال لقريش : « يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب آلهتنا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وإني أعاهد الله لأجلس له غداً بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد فضخت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم » .

وهو هو القائل مستهزئاً بالرسول : « يامعشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله

الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عدداً . أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟ » فنزلت فيه الآية : (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا) ، وهو الذى لقى حكيم بن حزام بن خويلد يحمل طعاماً يريد به عمته خديجة فى محنة الحصار . فتعلق اللعين به وقال : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، وأبى أن يطلقه حتى اشتبكا ، ونال أحدهما من صاحبه ، وفيه نزل قوله تعالى : (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى الْبُطُونِ كَغَلْىِ الْحَمِيمِ) .

وفى السيرة أنه هو الذى اعترض وفداً من النصارى جاءوا مكة يستطلعون لقومهم أمر محمد حين بلغهم خبره من الحبشة ، فما جلسوا إليه واستمعوا له حتى آمنوا به ، فلقيهم إثر انصرافهم أبو جهل فقال لهم : « خيبكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم ، لتأثرهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه ، ما نعلم ركباً أحمق منكم ! » .

وفى السيرة أيضاً : أنه هو الذى رأى لقريش قبيل الهجرة أن تختار كل قبيلة منها فتى شاباً جليداً نسيباً ، ثم يعطى سيفاً صارماً ، فيعمدوا جميعاً إلى محمد ويضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فينفرق دمه فى القبائل جميعاً . هذا هو السبب الذى من أجله ثار الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه من غير المعقول أن تكون ابنة هذا الرجل ضرَّة لفاطمة بنت النبى .

ولم يكن من المعقول أن يستبدل الإمام علىّ بالنبى أبا جهل بن هشام صهراً ، وليس علىّ هو الذى يؤذى نبيه وأباه وابن عمه فى أحب بناته إليه ،

والتي قال لها صلى الله عليه وسلم : « إن الله غير معذبك ولا أحد من ولدك » وهي التي قال فيها أيضاً : « إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، ثم ينادي مناد أن الجليل جل جلاله يقول : نكسوا رؤوسكم وغضّوا أبصاركم فإن هذه فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم تريد أن تمر على الصراط » .

وعن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم مر في السماء السابعة وقال : فرأيت فيها لمريم ولأم موسى ولآسية امرأة فرعون ولخديجة بنت خويلد قصوراً من ياقوت ، ولفاطمة بنت محمد سبعين قصراً من مرجان أحمر مزين باللؤلؤ ، أبوابها وأسرتها من عود واحد .

هذه هي الزهراء التي يحبها الرسول ، كما رأينا فيما سبق . ونكرر أنه لم يكن من المعقول أن تجتمع بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عدو الله ببيت واحد .

وعن يحيى بن سعيد القطان ، قال : ذاكرت عبد الله بن داود الحريشي قول النبي صلى الله عليه وسلم : لا آذن إلا أن يحب عليّ بن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، قال ابن داود : حرم الله على عليّ أن ينكح على فاطمة في حياتها لقول الله عزّ وجل : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) .

فلما قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا آذن لم يكن يحل لعليّ أن ينكح على فاطمة إلا أن يأذن رسول الله ، قال : وسمعت عمر بن داود يقول : لما قال الرسول فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ، ويؤذيني ما آذاها ، حرم الله على عليّ أن ينكح على فاطمة ، إذ أنه بنكاحه عليها يؤذي الرسول ،

والله تعالى يقول : (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ) .

بقى سؤال : هو متى همّ الإمام علىّ بالزواج على الزهراء ؟

صمت المؤرخون ورجال الحديث ، فلم يشيروا إلى موعد لخطبته ، على ما لذلك من أهمية وخطر . ولكنا نطمئن إلى أنها كانت فى الفترة الأولى من زواجهما ، وهو اطمئنان لا يسنده دليل نقلى ، وإنما يغرينا به فهمنا لطبيعة الموقف وتقديرنا أنه أقرب احتمالا حين كانت فاطمة وعلىّ فى مستهل حياتهما الزوجية لم تألف بعد شدته وصرامته ، ولم يرض هو نفسه باحتمال ما كانت تجد من حزن لفقد أمها ، وشجو لفراق بيتها الأول .

وبهذا الاطمئنان يميل كثير من المؤرخين إلى تحديد الحادثة على وجه التقريب فى العام الثانى من الهجرة ، قبل أن يأتيهما العام الثالث بأولى الثمرات المباركة للزواج .

إلى هنا أكون قد وفيت هذه الحادثة حقها – ولكن كثيراً من المؤرخين والكتاب ينكرون هذا الحادث تماماً ويذكرون أنها رواية مزعومة لم يعرفها المؤرخون ، وفى مقدمة من يعارض هذا الحادث ولا يعترف به إطلاقاً العلامة الأستاذ الكبير محمد صادق الصدر ، ومن رأيه أن المسور بن مخرمة هو الذى ردد هذه الرواية . بل وافتعلها ، ومن حق أستاذنا محمد صادق الصدر أن أشير إلى رأيه ، ففيه من الحقائق والدفاع عن الإمام ما يجعلنى قد أميل إلى رأيه ، فالإمام الذى بات متوشحاً بردة النبى فادياً الرسول بنفسه ، لا يعقل أن يقف من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بضعته مثل هذا الموقف .

وما روى عن المسور بن مخرمة من روايات عديدة والتى تشير إلى أن الإمام

على كان بصدد الخطبة والزواج فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى حياة الزهراء ، فهو كثير سأذكره وأترك للأستاذ الكبير محمد الصدر التعليق عليه :

١ – عن المسور بن مخرمة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وهو يقول : « إن بنى هاشم بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن هم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى ، وينكح ابنتهم ، فإنما ابنتى بضعة منى يريبنى ما رابها ، ويؤذينى ما آذاها » أخرجه الشيخان والترمذى وصححه ، وقال البخارى عن المسور أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن فاطمة منى فمن أغضبها أغضبنى » .

٢ وعن المسور أيضاً قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على منبره هذا وأنا يومئذ محتلم فقال إن فاطمة منى وأنا أخوف أن تفتتن فى دينها . قال ثم ذكر صهراً له من بنى عبد شمس فأثنى عليه فى مصاهرته إياه فأحسن ، قال : حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فأوفانى ، وإنى لست أحرم حلالاً ، ولا أحل حراماً ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله ، وبنت عدو الله فى مكان واحد أبداً .

٣ وعن المسور أن على بن أبى طالب خطب بنت أبى جهل وعنده فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت له إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك ، وهذا على ناكح ابنة أبى جهل ، قال المسور فقام النبى صلى الله عليه وسلم فسمعته حين تشهد ثم قال : أما بعد ، فإنى أنكحت أبا العاص بن الربيع

فحدثني فصدقني ، وإن فاطمة بضعة مني ، وإنما أكره أن تفتنوها ، وإنه والله لا تجتمع بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدًا : قال فترك على الخطبة ، أخرجهما الشيخان وأبو حاتم .

٤ - وعن المسور بن مخرمة أنه بعث إليه – أى الإمام بعث إلى ابن مخرمة – حسن بن حسن يخطب ابنته فقال له فلتأتني فى العتمة فلقيه ، فحمد المسور الله عز وجل ، وأثنى عليه وقال : أما بعد فما من نسب وسبب ، ولا صهر أحب إلىّ من نسبكم وصهركم ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فاطمة بضعة منى يقبضنى ما يقبضها ، ويبسطنى ما يبسطها ، وإن الأنساب يوم القيامة تنقطع إلا نسبى وصهرى » وعندك ابنته ، ولو زوجتها لقبضها ذلك ، فانطلق عاذراً له ، أخرجه أحمد فى المناقب .

الواقع أن هذا الكلام المفتعل الذى زوره المسور لا يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أن الإقدام على الخطبة من الإمام أمر مستحيل لا يمكن تصوره والزهراء فى قيد الحياة .

فعلى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو صريح آية المباهلة ، فهل يعرض الرسول العظيم وهو ذو الخلق الكريم – بأخيه إذ يذكر غيره بالصدق ، والوفاء بالوعد ، وقد قال له كما يروى ذلك عمر بن الخطاب وابن عباس وغيرهما من الأصحاب أخصك « ياعلى : بالنبوة ولا نبوة بعدى ، وتخص بسبع ، ولا يحاجك فيها أحد من قريش ، أنت أولهم إيماناً بالله ، وأوفاهم بعهد الله ، وأقومهم بأمر الله ، وأقسمهم بالسوية ، وأعدلهم فى الرعية وأبصرهم بالقضية ، وأعظمهم عند الله مزية » .

فهل الذى كان أوفى الصحابة بعهد الله يكذب فى الوفاء بوعد رسول الله

فى أمر يعود إلى بضعته وهى أقرب الناس إلى نفسه ؟ ؟

وكيف يكون الإمام أقومهم بأمر الله ، وأعظمهم عند الله مزية وهو لا يتورع – وحاشاه - عن الكذب ، وخيانة العهد ؟ ؟

ولا يحتاج الإمام أكثر من الإشارة لو فرضنا – وفرض المحال ليس من المحال – أنه عليه السلام كان بصدد الخطبة ؟ ؟

ولم يكتف المسور بما نقل عن الإمام من رغبته بالزواج من هنا وهناك حتى جاء دور المسور نفسه فافترض أن الإمام أراد من المسور ابنته ، وأن ابن مخرمة وعظه وذكره فى الحديث المشهور « فاطمة بضعة منى » فرجع عن الخطبة عاذرا ، وهذا من رزايا الإسلام فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ويتضح من الرواية الرابعة ومن قوله : « وعندك ابنته ، ولو زوجتك لقبضها ذلك » إن الخطبة لابنته كانت فى حياة الزهراء كما هو واضح .

ومن المعلوم أن عمر « ابن مخرمة » كان عند وفاة الرسول ثمانى سنين كما سيتضح بعد قليل من ملخص حياته .

وأن الزهراء عاشت بعد أبيها ستة أشهر على أشهر الروايات فيكون عمر بطل الروايات المغوار ثمانى سنين وستة أشهر ، فمتى تزوج المسور ومتى ولدت له بنت وقد خطبها الإمام ؟ ؟

لا شك أن ابن مخرمة لم يتحدث عن هذه الخطبة فى حياة الإمام ، وإنما تحدث عنها بعد سنين وسنين فى وقت قد ضاع فيه الحساب على الناس ، وما عرف ابن مخرمة ، أنا سنقف له بالمرصاد بعون الله - بعد ألف ومئات من السنين .

وقد تسور ابن مخرمة على قدسى مقام الزهراء عليها السلام إذ قال

ناسبًا إلى النبي أنه قال : « إن فاطمة منى ، وأنا أخوف أن تفتتن فى دينها » وهذا واضح بأنه ليس مما يتفوه به النبى الكريم وهو القائل بأنها سيدة نساء العالمين ، ومن كانت بهذه المنزلة فكيف يتخوف عليها أن تفتتن فى دينها ؟ !

ثم هناك شيء آخر يوضح لنا افتعال هذه الأقوال ، فإن المسور يدعى أن الرسول كان يعلن هذه الأقوال على أعواد المنبر ، فلو صحت لنقلها غيره ممن حضر ، مع العلم أن المسور قد انفرد بالنقل ، ولم تنقل عن غيره ممن كان منحرفًا عن الإمام .

وترجمة حياة المسور تعطى ضوءًا كاشفًا عن بعده عن الإمام وقربه من أعدائه مما يقرب إلى الذهن وضع هذه الأقوال .

ونستخلص من ترجمته فى (الاستيعاب) والإصابة عدة أمور :

١ – المسور ابن أخت عبد الرحمن بن عوف ، وأنه لم يزل مع خاله هذا مقبلا ومدبرًا فى أمور الشورى وعبد الرحمن موقفه من الإمام فى الشورى معلوم وابن أخته على شاكلته .

٢ – « قبض النبى صلى الله عليه وسلم والمسور ابن ثمانى سنين » وأنه ولد بعد الهجرة بسنتين .

٣ – يقول فى الاستيعاب : « وكان المسور لفضله ودينه وحسن رأيه تغشاه الخوارج وتعظمه ، وتنقل رأيه »

٤ – ويقول فى (الإصابة) : « وكان مع خاله عبد الرحمن بن عوف ليالى الشورى وحفظ عنه أشياء ، ثم كان مع ابن الزبير فلما كان الحصار الأول أصابه حجر من حجارة المنجنيق فمات » .

٥ – يقول فى (الإصابة) : « وأخرج البغوى من طريق أم بكر بنت

المسور عن أبيها يقول : « مر بى يهودى والنبى صلى الله عليه وسلم يتوضأ وأنا خلفه فرفع ثوبه فإذا خاتم النبوة فى ظهره فقال لى اليهودى ارفع رداءه عن ظهره فذهبت أفعل فنضح فى وجهى كفًا من ماء » .

٦ – ويقول فى (الإصابة) : « ومن طريق عثمان بن حكيم عن أبى أمامة بن سهل عن المسور أقبلت بحجر أحمله ثقيل وعلى إزار خفيف فانحل فلم أستطع أن أضع الحجر حتى بلغت به موضعه ، فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم ارجع إلى ثوبك فخذه ولا تمشوا عراة » .

فالمسور كان حين روايته لهذه الأحاديث صغير السن لا تتجاوز سنه ثمانى سنين حين وفاة النبى ، وهو فى هذه السن لا يعرف مواقع الكلام ، ويدل على قلة إدراكه مشيه عاريًا بدون إزار كما يحدث هو عن نفسه ، وكذلك إقدامه على رفع ثوب رسول الله ممتثلا قول يهودى أمره بذلك ، وقوله « فرفع ثوبه فإذا خاتم النبوة فى ظهره » كذب صريح لأن خاتم النبوة على الكتف الأيمن مما قام الإجماع عليه .

ثم قوله سمعت رسول الله يخطب على منبره هذا وأنا يومئذ محتلم كذب آخر ، فإن سنه كانت باتفاق المؤرخين ثمانى سنين عند وفاة النبى فلا يمكن احتلامه فى هذه السن .

وقد تأول بعضهم قوله وأنا محتلم قال فى (الإصابة) : « سمعت النبى صلى الله عليه وسلم وأنا محتلم » يدل على أنه ولد قبل الهجرة ، ولكنهم أطبقوا على أنه ولد بعدها ، وقد تأول بعضهم أن قوله محتلم من الحلم بالكسر ، لا من الحلم بالضم ، يريد أنه كان عاقلا ضابطًا لما يتحمله ، وهذا خطأ لأن لفظ محتلم لم يؤخذ من حلم وإنما أخذ من احتلم كما هو واضح ، واحتلم

معناه أدرك وبلغ مبلغ الرجال .

على أنه لو سلمنا أنه أراد من قوله (محتلم) العقل والضبط فإنا نقول إن إبداء سوءته ، وإقدامه على رفع ثوب الرسول يدل على غباوته ، وضعف إدراكه ، وأنه لا يعى ما يقال له أو يقول .

أضف إلى ذلك أن سيرته توقفه موقف المتهم فى كل ما يحدث أو يقول حول الإمام عليه السلام ، فقد كان ملازمًا لخاله عبد الرحمن كما عرفت ، ولازم بعده ابن الزبير ، وابن الزبير قد أثر على أبيه فحوله من صديق للإمام ملازم إلى عدو مقاوم فما ظنك بالمسور وهو رفيقه وقرينه .

ثم لازم الخوارج المسور ، تعشاه ، وتعمل بآرائه ، كما ترى من تصريح ابن عبد البر وهل تثق به إلا لهذه الأقوال التى تدل بوضوح على انحرافه عن أهل البيت عليهم السلام ، فإن هذه الأقوال التى زعمها كانت فى الواقع خارجة كلها عن المعقول ، وهى مسيئة كل الإساءة للرسول صلى الله عليه وسلم وللإمام على وللزهراء البتول .

انقشعت السحابة التى ظللت أفق الزهراء حينًا لا نحدد مداه ، وعاد البيت أصفى جوًا مما كان قبل أن يمتحن بتلك التجربة القاسية ، ومضت الحياة تسير بالزوجين الكريمين على ما يرجوان من تعاون ومودة ، فاطمة فى الدار تقوم على خدمة زوجها ما وسعها الجهد ، وتتخلص شيئًا فشيئًا مما كان يعتادها من شجن وانقباض ، وعلىّ إلى جانبها يبذل لها من الحدب والرعاية ما يعينها على مشقة العيش الكادح فى جو المدينة الذى لم تسعفها صحتها على أن تألفه بسرعة كما ألفه كثير من المهاجرين ، ويحاول قدر ما أطاق أن يترفق بها ، ويروض نفسه على شىء من اللين واليسر .

بلاغتها وفصاحتها :

أوتيت الزهراء ، رضى الله عنها ، كسائر أهل البيت حظًّا عظيمًا من الفصاحة والبلاغة ، فكلامها متناسب الفقر ، متشاكل الأطراف ، تملك القلوب بمعانيه ، وتجتذب النفوس بمحكم أدائه ومبانيه ، فهى فى البيان من أغزر القوم مادة ، وأطولهم باعًا ، وأمضاهم سليقة ، وأسرعهم خاطرًا ، وإنه ليتبين ذلك خاصة فى خطبتها وكلامها فى بيعة أبى بكر رضى الله عنه وخلافها معه بشأن « فدك » .

وفى كتاب بلاغات النساء قال الإمام أبو الفضل أحمد بن طاهر : « لما اجتمع أبو بكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم « فدك » وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت فى لمة من حفدتها تطأ ذيولها ما تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، حتى دخلت على أبى بكر ، وهو فى حشد من المهاجرين والأنصار ، فنيطت دونها ملاءة ، ثم أنَّت أنَّةً أجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس ، فأمهلت حتى سكن نشيج القوم ، وهدأت فورتهم ، فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعاد القوم فى بكائهم ، فلما أمسكوا عادت فى كلامها فقالت :

الحمد لله على ما أنعم ، وله الشكر على ما ألهم ، والثناء بما قدم ، من عموم نعم ابتداها ، وسبوغ آلاء أسداها ، وتمام نعم والاها ، جم عن الإحصاء عددها ، ونأى عن الجزاء أمدها ، وتفاوت عن الإدراك أبدها ، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها ، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها ،

وثنى بالندب إلى أمثالها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلمة جعل الإخلاص تأويلها ، وضمن القلوب موصولها ، وأنار فى التفكير معقولها ، الممتنع من الأبصار رؤيته ، ومن الألسن صفته ، ومن الأوهام كيفيته ، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها ، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها ، كوّنها بقدرته ، وذراها بمشيئته ، من غير حاجة منه إلى تكوينها ، ولا فائدة له فى تصويرها ، إلا تثبيتًا لحكمته ، وتنبيهًا على طاعته ، وإظهارًا لقدرته ، وتعبدًا لبريته ، وإعزازاً لدعوته ، ثم جعل الثواب على طاعته ، ووضع العقاب على معصيته ، ذيادة لعباده عن نقمته ، وحياشة لهم إلى جنته ، وأشهد أن أبى محمدًا عبده ورسوله ، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله ، وسماه قبل أن اجتباه ، واصطفاه قبل أن ابتعثه ، إذ الخلائق بالغيب مكنونة ، وبستر الأهاويل مصونة ، وبنهاية العدم مقرونة ، علمًا من الله تعالى بمآل الأمور ، وإحاطة بحوادث الدهور ، ومعرفة بمواقع المقدور ، ابتعثه الله تعالى إمامًا لأمره ، وعزيمة على إمضاء حكمه ، وإنفاذًا لمقادير حتمه ، فرأى الأمم فرقًا فى أديانها ، عكفًا على نيرانها ، عابدة لأوثانها ، منكرة لله مع عرفانها ، فأنار الله تعالى بأبى محمد صلى الله عليه وسلم ظلمها ، وكشف عن القلوب بهمها ، وجلى عن الأبصار غممها ، وقام فى الناس بالهداية ، وأنقذهم من الغواية ، وبصرهم من العماية ، وهداهم إلى الدين القويم ، ودعاهم إلى الصراط المستقيم ، ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار ، ورغبة وإيثار ، فمحمد صلى الله عليه وسلم عن تعب هذه الدار فى راحة ، قد حف بالملائكة الأبرار ، ورضوان الرب الغفار ، ومجاورة الملك الجبار ، صلى الله على أبى نبيه ، وأمينه على وحيه وصفيه ، وخيرته من الخلق ورضيه ،

والسلام عليه ورحمة الله وبركاته . (ثم التفتت إلى أهل المجلس وقالت) : أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه ، وحملة دينه ووحيه ، وأمناءُ الله على أنفسكم ، وبلغاؤه إلى الأمم ، وزعيم حق له فيكم ، وعهد قدمه إليكم ، وبقية استخلفها عليكم ، كتاب الله الناطق ، والقرآن الصادق ، والنور الساطع ، والضياء اللامع ، بينة بصائره ، منكشفة سرائره ، متجلية ظواهره ، مغتبط به أشياعه ، قائد إلى الرضوان أتباعه ، مؤد إلى النجاة استماعه ، به تنال حجج الله المنورة ، وعزائمه المفسرة ، ومحارمه المحذرة ، وبيناته الجالية ، وبراهينه الكافية ، وفضائله المندوبة ، ورخصه الموهوبة ، وشرائعه المكتوبة ، فجعل الله الإيمان . تطهيرًا لكم من الشرك ، والصلاة تنزيهًا لكم عن الكبر ، والزكاة تزكية للنفس ، ونماء فى الرزق ، والصيام تثبيتًا للإخلاص ، والحج تشييدًا للدين ، والعدل تنسيقًا للقلوب ، وطاعتنا نظامًا للملة ، وإمامتنا أمانًا من الفرقة ، والجهاد عزًا للإسلام ، وذلاً لأهل الكفر والنفاق ، والصبر معونة على استيجاب الأجر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مصلحة للعامة ، وبر الوالدين وقاية من السخط ، وصلة الأرحام منسأة فى العمر ، والقصاص حقنًا للدماء ، والوفاء بالنذر تعويضًا للمغفرة ، وتوفية المكاييل والموازين تغييرًا للبخس ، والنهى عن شرب الخمر تنزيهًا عن الرجس ، واجتناب القذف حجابًا عن اللعنة ، وترك السرقة إيجابًا للعفة ، وحرم الله الشرك إخلاصًا له بالربوبية ، (فَاتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) . ثم قالت عليها السلام : أيها الناس اعلموا أنى فاطمة ، وأبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أقول عودًا وبدءًا ، ولا أقول ما أقول غلطًا ،

ولا أفعل ما أفعل شططًا ، (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ، فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم وأخا ابن عمي دون رجالكم ، ولعم المعزى إليه فبلغ الرسالة ، صادعًا بالنذارة ، مائلا عن مدرجة المشركين ، ضاربًا ثبجهم ، آخذا بكظمهم ، داعيًا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، يكسر الأصنام ، وينكث الهام ، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر ، حتى تفرى الليل عن صبحه ، وأسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين ، وخرست شقاشق الشياطين ، وطاح وشيظ النفاق ، وانحلت عقدة الكفر والشقاق ، وفهتم بكلمة الإخلاص ، في نفر من البيض الخماص ، وكنتم على شفا حفرة من النار ، مذقة الشارب ، ونهزة الطامع ، وقبسة العجلان ، وموطئ الأقدام ، تشربون الطرق ، وتقتاتون القدّ ، أذلة خاسئين ، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم ، فأنقذكم الله تبارك تعالى بأبي محمد صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتي ، وبعد أن مني بهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب (كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ) .

وقالت : هذا كتاب الله بين أظهركم ، أموره ظاهرة ، وأحكامه زاهرة ، وأعلامه باهرة ، وزواجره لائحة ، وأوامره واضحة ، قد خلفتموه وراء ظهوركم . أرغبة عنه تدبرون ، أم بغيره تحكمون ؟ (بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ، وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ . وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) ، أفلا تعلمون ؟ بلى ، قد تجلى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته . أيها المسلمون ، أأغلب على إرثي يابن أبي قحافة ؟

أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شيئاً فرياً ، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم ، إذ يقول : (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) ، وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا عليهما السلام : (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) ، وقال : (وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ) ، وقال : (يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) ، وقال : (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) ، وزعمتم ألا حظوة لي . ولا أرث من أبي ، ولا رحم بيننا ، أفخصكم الله بآية أخرج منها أبي صلى الله عليه وسلم أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان ؟ أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة . أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابني وعمي ؟ فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله ، والزعيم محمد ، والموعد القيامة ، وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولا ينفعكم إذ تندمون : (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) ، (إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) . ألا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم ، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم ، ونكثها فيضة النفس ، وبثة الصدر ، ونفثة الغيظ ، وتقدمة الحجة ، فدونكموها فاستقوها دبرة الظهر ، نقبة الخف ، باقية العار ، موسومة بغضب الله وشنار الأبد ، موصولة بنار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ، فبعين الله ما تفعلون ، (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) ، وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد (فَاعْمَلُوا إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) ، .

والمشهور عن السيدة الزهراء ، رضى الله عنها ، أنها كانت قوية العارضة ، خطيبة بارعة إذا ما انتبرت المنابر هزت القلوب والمشاعر ، وإن خطبها على جمهرة من المهاجرين والأنصار آية على ثبت بديهتها وحضور ذهنها .

أما شعرها وإن لم يؤثر عنها إلا القليل ، فكان واضح النهج لا تكلف فيه ولا تعسف .

وقيل إنها رضى الله عنها صارت إلى قبر أبيها بعد موته صلى الله عليه وسلم ووقفت عليه وبكت وأنشأت تقول :

قل للمغيّب تحت أطباق الثرى ... إن كنت تسمع صرختى ونداثيا
صبّت علىّ مصائب لو أنها ... صبت على الأيام عدن لياليا
قد كنت ذات حمى بظل محمد ... لا أختشى ضيمًا وكان جماليا
فاليوم أخشع للذليل وأتقى ... ضيمى وأدفع ظالمى بردائيا
فإذا بكت قمرية فى ليلها ... شجنًا على غصن بكيت صباحيا
فلأجعلن الحزن بعدك مؤنتى ... ولأجعلن الدمع فيك وشاحيا
ماذا على من شم تربة أحمد ... ألّا يشم مدى الزمان غواليا

وتمثلت السيدة الزهراء ، رضى الله عنها ، عند وفاة أبيها بهذه الأبيات :

قد كنت لى جبلا ألوذ بظله ... فاليوم تسلمنى لأجرد ضاحى
قد كنت جار حمّى ما عشت لى ... واليوم بعدك من يريش جناحى
وأعضّ من طرفى وأعلم أنه ... قد مات خير فوارسى وسلاحى
حضرت منيته فأسلمنى العزا ... وتمكنت ريب المنون جراحى

وقالت أيضًا :

قلَّ صبرى وبان عنى عزائي ... بعـــد فقدى لخاتم الأنبياء
يا عينى اسكبى الدمع سحًّا ... وَيْك لا تبخلى بفيض الدماء
يا رسول الإله يا خيرة اللا ... ه وكهف الأيتام والضعفاء
قد بكتك الجبال والوحش والطيـ ... ـر كذا الأرض بعد سح السماء
وبكاك الحجون والركن والمشـ ... ـعر يا سيـــدى مع البطحاء
وبكاك الإسلام إذ صار فى النا ... س غريبًا من سائر الغرباء
لو ترى المنبر الذى كنت تعلو ... ه علاه الظلام بعد الضياء

وأخيرًا لا غرابة فى فصاحتها وبلاغتها ، لأنها – كما قدمنا – نشأت فى بيت النبوة ، تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء ، ثم انتقلت إلى بيت زوجها ، فعاشت سنين تسمع الكلام من الإمام علىّ رضى الله عنه ، الذى لم يختلف على بلاغته محب أو عدو ، وسمعت القرآن يرتل فى بيتها فى الصلوات ، وفى سائر الأوقات ، وتحدَّث الناس فى زمانها بمشابهتها لأبيها – كما قدمنا – فى مشيتها وحديثها وكلامها ، كما قالت السيدة أم المؤمنين ، عائشة رضى الله عنها : « كانت فاطمة أشبه الناس حديثاً وكلامًا برسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وقد أيد السيدة عائشة فى المشابهة بين الزهراء وأبيها صلى الله عليه وسلم الكثير من الثقات .

obeikandl.com

الزهراء وفلسفة الإسلام

« . . . فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك ، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر ، والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق ، والصيام تثبيتاً للإخلاص ، والحج تشييداً للدين ، والعدل تسيقاً للقلوب ، وطاعتنا نظاماً للملة ، وإمامتنا أماناً من الفرقة ، والجهاد عزاً للإسلام ، وذلاً لأهل الكفر والنفاق ، والصبر معونة على استيجاب الأجر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة ، وبر الوالدين وقاية من السخط ، وصلة الأرحام منساة في العمر ومثراة في العدد ، والقصاص حقناً للدماء ، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة ، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس ، والنهي عن الخمر تنزيهاً عن الرجس ، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة ، وترك السرقة إيجاباً للعفة ، وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية ، فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ، فإنما يخشى الله من عباده العلماء [1] .

في هذا المقطع الوضاء من الخطبة ترسم الزهراء الحقيقة الكبرى التي امتاز بها الإسلام عن سواه من الشرائع في كونه عقيدة ونظاماً ومنهجاً ، فهو يرسم الحياة الإنسانية برمّتها ، ويرسم متطلبات النوع الإنساني بهيكل تشريعي ضخم ، طرق باب كل مشكلة من مشكلات الحياة الإنسانية ،

(١) الزهراء ، للأستاذ عبد الزهراء عثمان .

وتوفَّر على حلها بما يتناسب والمصلحة ، وبما يتماشى والحكمة .

وهذه الحقيقة الكبرى التى امتاز بها منهج الله تعالى قد أغفلها الكثيرون من أبناء الأمة الإسلامية تأثرًا بالحضارة الغربية الغازية التى فصلت الدين عن الحياة .

ولا شك أن القارئ الكريم حين يستعرض هذه الفقرة الكريمة من خطبة الزهراء رضى الله عنها يتضح له أنها حين تحدثت عن فلسفة الإسلام وإطاره العام لم تكن لتستهدف إقناع مخاطبيها : أن فى الإسلام نظاماً يهذِّب الفرد ، وينظم الجماعة ، ويقيم الدولة ، وإنما كان ذلك أمرًا بديهيًّا فى حديثها ، بل من الأمور التى لا يرتاب فيها مسلم مهما انخفضت درجة إيمانه بالإسلام يومذاك ؛ ولذا فإن الزهراء عليها السلام استعرضت معالم الإسلام وتعليماته كوسيلة لتبيان حقيقة أخرى ترتبط بالحقيقة الأولى ، إذ كان همها أن تبين الأهداف السامية التى من أجلها كان التشريع الإسلامى بهذا الشكل لا بسواه ، بل إنها أرادت أن ترسم العلل التى من أجلها حددت معالم الرسالة الإسلامية بهذه الصيغة المعلومة لا بسواها .

وبعد ذلك قد يكون من الضرورى أن نلم إلمامة سريعة بالمفاهيم الإسلامية التى جاءت فى هذه الخطبة الكريمة ، وهذه التحفة التى منحتها الزهراء أجيالنا الإسلامية المتعاقبة . . .

أولا – الصلاة :

تستعرض الزهراء عليها السلام الحكمة فى تشريع الصلاة ، فتلخصها فى جملة قصيرة حيث تقول : « جعل الصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر » ، فالصلاة

فى منطق الزهراء رفع للإنسان من حضيض التكبر إلى مستوى التواضع . إن الإسلام حين يقرر العبودية لله تعالى يقصد من وراء ذلك أن يحرر الإنسان ، فلئن بدأت الجولة بالعبودية لله وحده فإنها تنتهى بالحرية التامة التى تجعل الفرد لا يخضع لأية قوة مهما تكن عاتية ، والاعتراف بالعبودية لله سبحانه وتعالى يرسم للمسلم الواقعى صورة حياة مثالية متعددة الجوانب ، مطبوعة بطابع الخضوع المطلق للعزيز الحكيم ، فهى ليست اعترافاً بالله كخالق للكون والحياة فحسب ، وإنما هى عملية يعلن الإنسان فيها أن الوجود كله لله سبحانه ، وأن الحاكمية المطلقة فى خلقه له وحده ، فلا مشرع لهذا الإنسان غير الله سبحانه وتعالى ، فهو وحده الذى يعلم ما يصلحه وما يفسده وما يرفعه وما يضعه .

وبعد هذا الاعتراف بالله سبحانه وصفاته المقدسة يقف المرء أمام ربه بهذا اليقين المطلق ، ليسأله العون والهداية . وهذه العملية تتكرر خمس مرات فى كل يوم ، لتكون مصدراً لتربية النفس والوجدان على الخضوع لله سبحانه الخضوع المستمر ، ولتطبع حياة الإنسان كلها بطابع هذا الخضوع ، ومن ثم فإن تكرار هذه العملية يشكل مناخاً صالحاً لصقل نفسية المسلم ومشاعره صقلا ينسجم وأوامر الله ونواهيه ، لينطلق المسلم بعدها وهو أكثر قدرة على تطبيق منهج السماء وحمله والتبشير به . وقد رسم القرآن الكريم هذه الحقيقة حين أعلن (إِن الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنْكَرِ) وهنا تتجلى الحقيقة التى تجعل من الصلاة مفتاحاً لخلق لون خاص من السلوك بعيد عن المتاهات والانحرافات والطيش والضياع ، كما تخلق مناعة طبيعية لمواجهة جراثيم الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

وجعلت الزهراء فريضة الصلاة الفريضة الأولى التي تعقب الإيمان بالله سبحانه وتعالى . والسر في أن الزهراء تعدّ الصلاة عملية تهذيب من الكبر والخيلاء أن المرء يشعر في قرارة نفسه أنه وكل موجود في هذا الكون البديع يقفون على صعيد العبودية المطلقة لله وحده . والإنسان في الوقت الذي يستشعر العبودية لله وحده في نفسه يحس بالتحرر المطلق من كل عبودية لغير الله تعالى ، فالناس يعيشون في إطار يحمل معنى العبودية لله الكبير المتعال ، وفي الوقت نفسه يعيشون على صعيد واحد من الكرامة والسؤدد ، فلا بد إذن أن تلغى كل معالم الخيلاء والتكبر من المجتمع الذي يعيش في إطار الرسالة الإسلامية الكبرى .

ثانياً - الزكاة :

وقد تعجب حين تسمع الزهراء عليها السلام تقول : « والزكاة تزكية النفس ونماء في الرزق » ، فتقول : وكيف يكون أداء الزكاة نماء في الرزق في حين أن الفرد يبذل أمواله وينفقها ، والإنفاق عكس النماء . لكن العجب يزول إذا عرفنا النتيجة التي تحصل من مساعدة الضعفاء الفقراء ، وهي ارتفاع مستواهم الاقتصادي ، وبلوغهم مرحلة مناسبة من الإنعاش المادي ، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة القوة الشرائية عند أكبر عدد من أفراد المجتمع . ومن أوليات ما يتعلمه دارسو الاقتصاد أن ازدياد القوة الشرائية عند الأفراد يؤدي إلى زيادة الإنتاج وزيادة الإقبال على السلع والخدمات الأمر الذي ينتهي بالفائدة والسعة في الرزق لجميع الأفراد ، أضف إلى هذا أن الله تعالى

وهو الرزاق الأول سيكافئ هؤلاء الذين ينفقون أموالهم فى سبيله بأضعاف ما أنفقوا ، فيهيئ لهم وسائل التقدم والنجاح دائماً .

إننا إذا استقرأنا أحوال الأفراد الذين يمدّون يد العون إلى الفقراء والضعفاء بسخاء ، ويسهمون فى المشاريع الخيرية ، ويؤدون ما عليهم من واجبات مالية ، نجد أن غالبيتهم يسيرون فى خط تصاعدى بالنسبة إلى الثروة وزيادة الدخل .

ثالثاً – الصوم :

وحين أتت الزهراء عليها السلام على ذكر الصوم قالت : « والصيام تثبيتاً للإخلاص » متى يستطيع الفرد إثبات إخلاصه لله تعالى ؟ . . . عندما ينجح فى السيطرة على غرائزه وشهواته ويوجهها الوجهة المعقولة التى لا إفراط فيها ولا تفريط . وفى الصيام تتجلى على مظاهر ضبط لنفس والسيطرة على زمام الشهوات ، فإن الإنسان – بمحض إرادته يمسك عن الطعام والشراب طيلة النهار ، وكذلك يمسك عن كثير من الأمور ، وبذلك يثبت إخلاصه لله تعالى .

رابعاً – الحج :

أما عن الحج فقد قالت عليها السلام : « والحج تشييداً للدين » .

إن هذا الواجب الإسلامى المقدس يهدف إلى أسمى الغايات وأعظم

المقاصد ، ذلك هو التقاء جهود المسلمين جميعاً ، وتبادل وجهات النظر فيما بينهم فى المسائل والشئون التى تهمهم .

وجميع مناسك الحج ترمز إلى حقائق أعمق مما يتصوره الأفراد السذج ؛ فالطواف مثلاً حول البيت يمثل ضرورة دوران نشاط الفرد حول نقطة مركزية واحدة هى رضا الله تعالى ، وتعبيراً عن هذه المشاعر يطوف الفرد حول البيت ، ليؤكد تأسيس جميع أعماله وأفكاره وأقواله على أساس من رضا الله وإرادته .

ومن الطبيعى بعد ذلك أن يكون الحج تشييداً للدين ، فهو مؤتمر موسع يستوعب مئات الألوف من المسلمين كل عام ، كل يحاول أن يستفيد مما لدى أخيه المسلم من تجارب وآراء .

خامساً - العدل :

وعن العدل قالت عليها السلام : « والعدل تنسيقًا للقلوب » .

إن العدل أساس الاستقامة فى النظام الاجتماعى ، وهو الضمان الوحيد لسيطرة الأمن والهدوء على جميع الناس .

إن التشريع العادل هو الجدير بالبقاء ، لأنه يعامل الناس جميعًا معاملة واحدة ، لا يميز فيها بين غنى وفقير ، وشريف ووضيع وقوى وضعيف .

القوى هو صاحب الحق فى منطق الإسلام . . .

والضعيف هو المغلوب على أمره الذى لا يملك حجة على ما يذهب ؛

والشريف هو الذى يستغل مواهبه وطاقاته فى الخير . . .

والوضيع هو الذى لا يرتفع عن مستوى البهائم . . .

وبعد هذا كله هم أمام القانون سواء ، يقوم ميزان العدالة بالحكم فيما بينهم بالقسطاس المستقيم ، وهو أدعى للتآلف بين القلوب ، وتنسيقها ، كما قالت الزهراء .

سادساً – وجوب طاعة أهل البيت :

وهكذا تستطرد الزهراء عليها السلام فى حديثها عن فلسفة الأحكام فتقول : « وطاعتنا نظاماً للملة » .

لا شك أن الأمة تحتاج إلى من يأخذ بيدها نحو شاطئ الخير والهداية دائماً . إنها لا تستغنى عمن يقوم بدور الإرشاد والتوجيه ؛ والذى يقوم بهذه المهمة هم أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

وعلى هذا الأساس فإن طاعة أهل البيت هى الركيزة الأولى فى بناء النظام الإسلامى .

ومن هنا جاء الحث على إطاعتهم فى القرآن الكريم ، حيث قال عزَّ من قائل : (وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ) .

سابعاً – الإمامة :

وتكملة لموضوع الطاعة تقول عن الإمامة : « وإمامتنا أماناً من الفرقة » .

إن الأئمة هم الأنوار الساطعة فى الأرض ، وهم الذين يرشدون الناس إلى الأحكام الإسلامية ، ويجنبونهم المشكلات والأخطار التى تسبب لهم

الدمار والشقاء . الأئمة – عليهم السلام – هم الأعلام الواضحة التي يستضيء بها الناس في متاهات الحياة .

ثامناً - الجهاد :

وهل يشك أحد أن « الجهاد عزّ الإسلام » كما قالت الزهراء عليها السلام ؟ إن الدولة – أية دولة – تحتاج إلى قوة دفاعية تحصنها ضد اعتداء الأعداء وتجاوزهم .

وتشريع الإسلام للجهاد إنما هو تأكيد على ما عهدته البشرية من ضرورة تقوية المراكز الحساسة في الدولة منعاً للأعداء من إلحاق الأذى بالمواطنين .

وإلى هذا أشار القرآن الكريم في قوله : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ) .

كما أكد الإمام علي بن أبي طالب حين قال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة » .

تاسعاً - الصبر :

وقالت عن الصبر : « والصبر معونة على استيجاب الأجر » .

من البديهي أن طريق الإصلاح ليس معبداً بالأزهار والرياحين ، بل تعترضه العقبات والعراقيل ، وهو مملوء بالمخاطر ، وعليه فلا بد على الفرد أن يواجه المشكلات برحابة صدر ، ويعمل على حلها بدقة وإتقان . هذا

يبرز دور الصبر وأهميته حيث إنه يمنح الإنسان طاقة لمواصلة السير حتى النهاية ، ولذلك فطبيعي أن يكون معونة على استيجاب الأجر من الله تعالى .

عاشراً – الأمر بالمعروف .

والأمر بالمعروف ، هذه الدعامة العظيمة ، قالت الزهراء عليها السلام عنه : « مصلحة عامة » .

أجل ، فإن قوام المجتمع إنما هو بتكاتف أفراده ، وتواصيهم بالحق والخير يجعل كل فرد من نفسه رقيباً على الآخرين ، يدعوهم إلى التزام العمل الصالح ، ويحثهم على السلوك الفاضل ، ولهذا أثره الكبير في تقدم المجتمع ، وانتشار الوعي بين أفراده .

إن الأمر بالمعروف في منطق الزهراء عليها السلام – وهو لا يعدو أن يكون منطق الإسلام بالذات – يحقق أكبر مقدار ممكن من المصلحة للأمة .

كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية راعٍ والجميع مسئولون عن رعيتهم ، ولا يخفى أن الشعور بالمسئولية أساس ضمان الحقوق لجميع الأفراد ، وأساس التقدم والنجاح .

حادي عشر – النهي عن المنكر :

ومن مستلزمات الأمر بالمعروف النهي عن المنكر ، وهما شقان لمبدإ واحد ، وعليهما ترتكز سلامة المجتمع وازدهاره .

كل فرد يحاول اقتلاع جذور الشر والفساد فى المجتمع . . . وكل فرد يعمل على ردع الخارجين على الآداب والتعاليم الإسلامية بالأسلوب النافع . . .

كل فرد يدعو إلى الخير والفضيلة .

ثانى عشر – صلة الأرحام :

وإذ فرغ الإسلام من التأكيد على وحدة الأسرة وتماسكها انتقل إلى الأسرة الأخرى التى ترتبط بهذه الأسرة بروابط القربى والرحم ، فأخذ يؤكد على ضرورة صلة الأرحام . وحين تأتي الزهراء عليها السلام إلى هذا الموضوع تقول : « وصلة الأرحام منسأة فى العمر ومناة للعدد » .

أجل ؛ إن التواصل بين الأقارب ، وتعاطفهم ، ومساعدة بعضهم بعضًا من أهم عوامل الوفاء والطمأنينة فى المجتمع .

ثالث عشر – الوفاء بالنذر :

تقول الزهراء : « الوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة » .

وإذ يفى الإنسان بالنذر الذى التزمه على نفسه تجاه الله ، فإنه يؤكد على طاعته لله تعالى ، ومعرفة حقّ خالقه عليه ، وهو عندئذ يكون مستوجباً مغفرته ورضوانه .

رابع عشر – توفية المكاييل والموازين :

وعن هذا الأمر أيضاً تحدثت الزهراء عليها السلام فقالت : « وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس » .

إن الإسلام يحارب الاستغلال ، ويحارب الغبن ، ويحارب البخس ... إنه لا يرتضى إلا العدل . يريد من الأفراد جميعاً أن يعيشوا متضامنين متكاتفين . وإيفاء المكاييل والموازين يقوم بدور مهم فى تحقيق هذه الغاية ؛ إنه لا يفسح مجالا للبخس والغبن بل يعطى كل فرد حقه .

خامس عشر – النهى عن شرب الخمر :

أما عن حكمة النهى عن شرب الخمر فقد قالت سلام الله عليها : « تنزيهاً عن الرجس » .

سادس عشر اجتناب القذف :

وعن الحكمة فى اجتناب القذف من قِبَل المسلم قالت عليها السلام : « حجاباً عن اللعنة » .

أجل ؛ فالقذف يورث اللعنة التى تنصب على كل من يحاول أن يتهم بريئًا ، أو يسب لآخر من المساوئ ما ليس فيه .

سابع عشر - حرمة الشرك :

وإذ أتت الزهراء عليها السلام على ذكر الشرك وحرمته قالت :
« وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية » .

الإيمان بالله يستلزم توحيده وعده الشرك به ، فإن الله (لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) .

ثامن عشر – وبر الوالدين وقاية من السخط :

هنا تلتفت الزهراء إلى الخلية الأولى التي ينشأ منها المجتمع الإنساني – هذه الخلية هي الأسرة – ولا تتناول الزهراء الاسرة برمتها ، وإنما تتناول العمود الفقري ، والأساس الذي تستند عليه في بناء كيانها ، فتناولت البر بالوالدين : الأب والأم – لما لهما من فاعلية ضخمة في بناء الكيان الاجتماعي . وإن اختلف عمل الوالدين في إطار الأسرة فهناك تمازج عضوي بين عملهما البنَّاء ، فالوالد يتناول البيت من الخارج ، فيكدح ويثابر لكسب الرزق وإدخال السرور على أسرته ، والأم تتناول البيت من الداخل بحكم تركيبها الفسيولوجي والنفسي والروحي ، فهي تحب الأطفال وتتولى رعايتهم ، وتسهر لمصلحتهم ، وتدبر البيت من الداخل ، لتكمل عمل الوالد الخارجي .

وحين يكون عمل الوالدين هذا شأنه على مر الأجيال والعصور ، فلا بد للإسلام – وهو منهج الله الخالد – أن يقوِّم عملهما هذا ، فإذا به يرفعهما إلى أعلى الآفاق : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ

ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . . .

فيشترط برهما ورعايتهما وعدم إيذائهما بأدنى الأمور حتى بالإشارة أو التضجر .

وقد يقرر الإسلام وجوب رعايه الوالدين فقد أصبح عقوقهما أمراً محظوراً يستلزم غضب الله وسخطه ، ولهذا السر عبيه راحت الزهراء رضي الله عنها ترسم هذه الحقيقة حين أعلنت أن برّ الوالدين يتحقق على يديه الابتعاد عن مغبة سخط الله وغضبه الذي يجرّ إلى الدمار والبوار .

تاسع عشر والقصاص حقاً للدماء :

هذ ترسم الزهراء رضي الله عنها حقيقة كبرى من حقائق التشريع الإسلامي الرصين تلك هي مفهوم القصاص ، فالرسالة الإسلامية إذ كانت في أساسها ديناً يرتقي بالنفس ، ويصقل الوجدان ، ويقوّم السلوك ، حتى يحمل المسلم على تطبيق متطلبات الرسالة بصورة تلقائية ، فإنه لا يقف عند هذا الحد ، لأنه يعلم أن المجتمع الإنساني مهما ارتفع إلى مستوى المثالية والنبل فإنه لا يخلو من طغيانيات يهمها التلاعب بمقدرات الرسالة واتباعها ، ولهذا وضع إلى جانب التربية التي يسبغها على أبنائه رصيداً تشريعياً تمثل عملية سلاحية لمن يحاول التلاعب بمقدرات الأمة ومبدئها القويم ، وفي طليعة هذا الرصيد التشريعي يقف الإسلام بنود القصاص التي تقضي بالمعاقبة بالمثل ، فنفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسنّ بالسنّ .

وهذا التشريع الإسلامي الرصين يحسب للمجتمع مناعة فعلية على

مواجهة التلاعب والاعتداء ، سواء وقع ذلك خطأً أم عمدًا .

وحين وضع الإسلام هذه القاعدة فى دستوره فإنما وضعها حقنًا لدماء أبنائه ، وحفظًا للتوازن والاستقرار فى مجتمعه ، لأن الإنسان إذا وجد نظامًا يكفل له صدَّ الاعتداء عليه ، ويأخذ بثأره ، فإنه يلجأ إليه دوامًا دون اللجوء لمفهوم الثأر الجاهلى ، أو الإخلال بالأمن الذى يؤدى غالباً إلى فقدان الهدوء والطمأنينة ، وإلى تمزيق الوحدة الاجتماعية .

وهكذا أوضحت الزهراءُ رضى الله عنها فلسفة تشريع حكم القصاص ، فعبرت عنه بأنه حقن للدماء ، فهو الوسيلة الوحيدة التى تحقن الدماءُ على أساسها وتصان حرمتها ؛ أما إذا ترك الحبل على الغارب للمعتدين بدون الاقتصاص منهم فقد وقعت الكارثة ، وقد فسر هذا السر كتاب الله العزيز بقوله : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) .

وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام :

لم تضحك السيدة فاطمة الزهراءُ رضى الله عنها بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم ، بل عُدَّت من البكائين الستة فى التاريخ : بكى آدم ندمًا ، وبكى نوح قومه ، وبكى يعقوب ابنه يوسف ، وبكى يحيى خوف النار ، وبكت فاطمة أباها ، وبكت ابنتها زينبُ جميع بنى هاشم ، وحزنت حزنًا شديدًا أثَّر على صحتها . والمرة الوحيدة التى ابتسمت فيها بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم ، عندما نظرت – وهى على فراش الموت – إلى أسماء بنت عميس ، وبعد أن لبست ملابس الموت ، فابتسمت ، ونظرت إلى نعشها الذى عمل قبل وفاتها وقالت : « سترتموني ستركم الله » ، فكانت

هذه هى اللحظة الوحيدة التى رُئيت فيها مبتسمة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

كانت الزهراءُ إلى جانب أبيها صلى الله عليه وسلم فى مرضه لا تفارقه ، تعنى به ، وتخدمه ، وفاشارفه الموت قال صلى الله عليه وسلم : « واكرباه » ، فأخذتها اللوعة ، وقالت فى أنين ، ومن قلب حزين : واكرب أبتاه ، فأدركته صلى الله عليه وسلم عليها رقة ورحمة ، فقال لها ليهدئ خاطرها : « لا كرب على أبيك بعد اليوم » .

ثم تعود فاطمة إلى نفسها وتذكر ما أسر به إليها من حضور أجله ، وأنها أول أهله لحوقًا به ، وما بشرها به من قوله : « ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين ؟ » فأخذت تهدئ من روعها ، ولكنها لم تستطع أن تقف ما استبق من عبراتها ، فأخذت تمسح دموعها حتى لا يراها والدها صلى الله عليه وسلم فيحزنه جزعها ، ولكن أنّى لها ذلك وهى أمام هول عظيم ، فهذا أبوها وحبيبها رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ثقل عليه مرضه ، وفتحت له أبواب السماء ، وأقبلت عليه ملائكة الله عز وجل بروح من الله ورضوان ، تبشره بلقاء ربه عز وجل ، وما أعده له من الوسيلة والدرجة العظيمة والمقام المحمود ، وما يلقاه فى الخلد من نعيم مقيم ، فلم يلبث صلى الله عليه وسلم أن صعدت روحه الكريمة الطاهرة المطهرة الراضية المرضية إلى ملئها الأعلى ، وإلى جوار رب العالمين ، فبكت فاطمة رضى الله عنها ، إذ فقدت أباها البرّ الكريم ، والرءوف الرحيم ، وتغشاها الأسى والاكتئاب ، ولذعها الجوى ، وتولتها غصّة وفجعة .

وقد روى السدى عن أشياخه ، قال : لما توفى رسول الله صلى الله عليه

وسلم قالت فاطمة رضى الله عنها تندبه :

أبى وا أبتاه أجاب ربًا دعاه
جنة الفردوس مأواه من ربه ما أدناه
إلى جبريل نعاه

ولما دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبلت على أنس بن مالك فقالت : « يا أنس ، كيف طابت أنفسكم أن تحثو التراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ »

ثم بكت ورثته قائلة :

اغبرّ آفاق السماء وكورت شمس النهار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبي كئيبة أسفًا عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها وليبكه مضر وكل يمان
وليبكه الطود المعظم جرده والبيت ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه صلى عليك منزل القرآن

ثم أخذت قبضة من تراب القبر فجعلتها على عينيها ووجهها ، ثم أنشأت تقول :

ماذا على من شم تربة أحمد ألّا يشم مدى الزمان غواليا
صبت علىّ مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن لياليا

وقالت على قبره :

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها وغاب مذ غبت عنا الوحى والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا لما نعيت وحالت دونك الكثب

وقد قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يعزى السيدة فاطمة :

أفاطم إن جزعت فذاك عـذر وإن لم تجزعى ذاك السبيل
فقبر أبيك سيد كل قبر وفيه سيد الناس الرسول

وكانت أم أيمن حاضنة الرسول صلى الله عليه وسلم من أشد الناس حزنًا وهلعًا ، وكانت تبكي حتى تصعق مكانها ، لا تحير كلامًا ، ولا تستطيع حراكًا ، حتى إذا عاد إليها روعها . وسئلت عن بكائها وجزعها ، قالت : لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيموت ولكني أبكي على الوحي إذ انقطع عنا من السماء .

ولقد عاشت السيدة الزهراء بعد الرسول عليه الصلاة والسلام خمسة وسبعين يومًا . وعن الصادق رضي الله عنه : مائة وخمسة وسبعين يوما ، لم تر كاشرة ولا ضاحكة ، تأتي قبور الشهداء في كل جمعة مرتين : الاثنين والخميس ، فتقول : ها هنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وها هنا كان المشركون » ، وفي رواية عن الصادق عليه السلام أنها كانت تصلي هناك وتدعو حتى ماتت . وروى عن الباقر عليه السلام قال : « ما رأيت فاطمة ضاحكة قط منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبضت »

وفي السيرة النبوية . عاشت فاطمة بعد أبيها ستة أشهر ، فما ضحكت تلك المدة .

وروى أنها ما زالت بعد أبيها معصبة الرأس ، ناحلة الجسم ، منهدة الركن ، باكية العين ، محترقة القلب يغشى عليها ساعة بعد ساعة ، وتقول لولديها : أين أبوكما الذي كان يكرمكما ويحملكما مرة بعد مرة ؟ أين أبوكما الذي كان أشد الناس شفقة عليكما ، فلا يدعكما تمشيان على

الأرض ، ولا أراه يفتح هذا الباب أبدًا ، ولا يحملكما على عاتقه كما كان يفعل ؟

وروى أنه لما قبض الرسول صلى الله عليه وسلم امتنع بلال عن الأذان وقال : لا أؤذن لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن فاطمة رضى الله عنها قالت ذات يوم : أشتهى أن أسمع صوت مؤذن أبى بالأذان ، فبلغ ذلك بلالا رضى الله عنه ، فأخذ يؤذن ، فلما قال : الله أكبر الله أكبر ، ذكرت أباها وأيامه ، فلم تتمالك نفسها من البكاء ، فلما بلغ قوله : وأشهد أن محمدًا رسول الله ، شهقت فاطمة رضى الله عنها ، وسقطت لوجهها ، وغشى عليها ، فقيل لبلال : أمسك ، فقد فارقت ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياة الدنيا ، وظنوا أنها قد ماتت ، فلم يتم الأذان ، فأفاقت ، فسألته إتمامه ، فلم يفعل وقال لها : يا سيدة النساء ، إني أخشى عليك مما تنزليه بنفسك إذا سمعت صوتى بالأذان ، فأعفته من ذلك .

وعن علىّ رضى الله عنه قال : غسلت النبى صلى الله عليه وسلم فى قميصه ، فكانت فاطمة رضى الله عنها تقول : أرنى القميص ، فإذا شمته غشى عليها ، فلما رأيت ذلك منها غيبته .

وفى رواية أن عليًا رضى الله عنه بنى لها بيتًا فى البقيع سمى ببيت الأحزان ، وهو باق إلى هذا الزمان ، وهو الموضع المعروف بمسجد فاطمة فى جهة قبة مشهد الحسن والعباس ، وإليه أشار ابن جبير بقوله : « ويلى القبة العباسية بيت فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ويعرف ببيت الحزن » ، يقال إنه هو الذى أوت إليه ، والتزمت الحزن فيه منذ وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم .

السيدة فاطمة والخلافة وميراث الرسول :

كانت السيدة فاطمة ترى حق الإمام علىّ فى الخلافة ، وترى أن قرابة النبي صلى الله عليه وسلم أحق المسلمين بالخلافة ، وأن بلاء علىّ فى الجهاد ، وعلمه المشهود به ، يؤهلانه لمقام الخلافة . وقد كانت الزهراء أيضًا صريحة الرأى ، حرة التفكير ، صارمة الأمر ، وما كانت رضى الله عنها لتتزحزح عن رأى اقتنعت به ورأته صوابًا ، وكان رأيها الذى لا تحيد عنه أن عليًا أحق بالخلافة من غيره ، فهو ربيب النبي ، وابن عمه أبى طالب ، وزوج ابنته الزهـــراء ، وأبو الحسنين ريحانتى الرسول ، وأول الناس إسلامًا ، وأطولهم فى الجهاد باعًا ، وقتى قريش شجاعة وعلماً .

واعتزلت الزهراء الناس ، ثم رأت أن تؤدى واجبها نحو زوجها وولديها ، فحملها علىّ فوق دابة وخرج بها ليلا ، فطافت بمجالس الأنصار مجلساً مجلساً تسألهم أن يؤيدوا أبا الحسن فيما يطلب ، فأجابوا جميعًا : « يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لأبى بكر ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا لما عدلنا به أحدًا » .

فكان الإمام يقول : « أفكنت أدع رسول الله فى بيته ولا أدفنه وأخرج أنازع فى سلطانه ؟ » ، وكان رد الزهراء : « ما صنع أبو الحسن إلا ما ينبغى ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم » .

ولم يكن هذا رأى الزهراء وحدها ، بل أيد هذا الاتجاه طائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجرى الأمر على غير هذا المجرى ، فاجتمعوا عندها ، واجتمعوا فى غير بيتها يتشاورون فيما بينهم ، أيبايعون أم يختلفون ؟

وبعد مناقشات بينهم وبين أبي بكر وعمر سفرت الفتنة عن معضدها ، وتكشفت الأمور . فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته على الإمام علي ، ولح الإمام علىّ أن أبا سفيان يقصد الوقيعة ، فأعرض عنه الإمام ، وكان عظيمًا عندما قال له : « إنك تريد أمرًا لسنا من أصحابه » ، فلما يئس من هذا الباب طرق باباً آخر يلج منه إلى مأربه ، وذهب إلى العباس يقول له : « مد يدك يا أبا الفضل أبايعك ، فلا يختلف عليك القوم ثم يقول : « إنك والله لأحمق بميراث ابن أخيك » ، فيرده العباس كما رده على .

ونعود إلى السيدة فاطمة فنقول : إنها تمسكت بحقها كاملا ، وعلمت بالمناقشات التي دارت بين زوجها والصديق وعمر ، فاعتكفت في منزلها ، وامتنعت عن مقابلة الصديق ، إلى أن قال عمر لأبي بكر انطلق بنا إلى فاطمة ، فإنا قد أغضبناها . واستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما ، فأتيا عليًّا فكلماه ، فأدخلهما عليها ، فلما قابلاها حولت وجهها إلى الحائط ، فسلما عليها ، فردت عليهما السلام بصوت خافت . وتكلم أبو بكر فقال : « يا حبيبة رسول الله ، والله إن قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلىّ من قرابتي ، وإنك لأحب إلىّ من عائشة ابنتي ، والله لوددت يوم مات أبوك رسول الله صلى الله عليه وسلم أني مت ولا أبقى بعده أفترينني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك ، وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ألا إني سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » . فقالت أرأيتكما إن حدثتكما حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرفانه وتفعلان به ؟ قالا : نعم ، فقالت : نشدتكما الله ،

ألم تسمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : رضا فاطمة من رضاى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة بنتى فقد أحبنى ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضانى ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطنى ؟ قالا : نعم ، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فإنى أشهد الله وملائكته أنكما سخطتمانى وما أرضيتمانى ، ولئن لقيت النبى صلى الله عليه وسلم لأشكونكما إليه .

فقال أبو بكر أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة . ثم انتحب أبو بكر يبكى حتى كادت نفسه أن تزهق ، وهى تقول : والله لأدعون الله تعالى عليك فى كل صلاة أصليها . ثم خرج باكيًا فاجتمع إليه الناس ، فقال لهم : يبيت كل رجل منكم معانقًا حليلته ، مسرورًا بأهله ، وتركتمونى وما أنا فيه ، لا حاجة لى فى بيعتكم . أقيلونى بيعتى » .

قالوا : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن هذا الأمر لا يستقيم إلا بك ، وأنت أعلمنا بذلك ، وإن كان هذا لم يقم لله عز وجل دين ، فقال . والله لولا ذلك وما أخافه من رخاوة هذه العروة ما بت ليلة وفى عنق مسلم بيعة بعدما سمعت ورأيت من فاطمة .

فما مسألة (فدك) ؟ التى ثار حولها الخلاف :

وملخص (١) تاريخ فدك كما جاء فى كتاب « فدك فى التاريخ »

---

(١) يذكر خوجات فى السقيفة وفدك أنها كانت تقدر بمائة ألف درهم ، لأن غروبة تذكر أن عمر قد أعطى هلى فدك إلى نشاء بعث إليه من يقوم الأموال ، فقوّمو رض فدك وعينها ، فأخذها عمر ، ودفع إليه قيمة نصف ندى لهم . وكان مبلغ ذلك خمسين ألف درهم أعطاهم إياها من مال الله من بيت مال

لسماحة السيد محمد باقر الصدر – أنّ « فدكاً » قرية فى الحجاز ، بينها وبين المدينة يومان ، وقيل ثلاثة ، وهى أرض يهودية فى مطلع تأريخها المأثور ، وكان يسكنها طائفة من اليهود ، ولم يزالوا على ذلك حتى السنة السابعة حيث قذف الله الرعب فى قلوب أهليها ، فصالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف من فدك . وروى أنه صالحهم عليها كلها .

وابتدأ بذلك تاريخها الإسلامى ، فكانت ملكًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، ثم قدّمها لابنته الزهراء ، وبقيت عندها حتى توفى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم أصبحت من مصادر المالية العامة فى عهد الخليفة سيدنا أبى بكر رضى الله عنه . فلما تولى عمر الخلافة دفع فدكًا إلى ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبقيت على آل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن تولى الخلافة عثمان بن عفان ، فأقطعها مروان بن الحكم على ما قيل . ثم يهمل التاريخ أمر فدك بعد عثمان ، فلا يصرّح عنها بشىء ، ولكن الشىء الثابت هو أن أمير المؤمنين عليًّا انتزعها من مروان على تقدير كونها عنده فى خلافة عثمان بن عفان .

وقيل إنه لما ولى معاوية بن أبى سفيان نفسه الخلافة أمعن فى السخرية ، وأكثر من الاستخفاف بالحق المهضوم ، فأقطع مروان بن الحكم ثلث فدك ، وعمر بن عثمان ثلثها ، ويزيد ابنه ثلثها الآخر ؛ فلم يزالوا يتداولونها

– ويقول الحموى عنها : « وفيها عين فوّارة ونخيل كثيرة »

ويقدر ابن أبى الحديد بعض محيلها بنخيل الكوفة فى القرن السادس الهجرى وحدد الإمام موسى بن جعفر فدكاً ، فقال : الحد الأول لمدك عدن ، والحد الثانى سمرقند والحد الثالث إفريقيا ، والحد الرابع سيف البحر مما يلى الخزر وأرمينيا

حتى خلصت كلها لمروان بن الحكم أيام ملكه ، ثم صفت لعمر بن عبد العزيز بن مروان ؛ فلما تولى عمر الأمر ردّ فدكًا على ولد فاطمة عليها السلام ، وكتب إلى واليه على المدينة أبى بكر بن عمرو بن حزم يأمره بذلك ، فكتب إليه أن فاطمة عليها السلام قد ولدت فى آل عثمان وآل فلان وفلان ، فعلى من أردّ منهم ؟ فكتب إليه : أما بعد ، فإنى لو كتبت إليك آمرك أن تذبح بقرة لسألتنى ما لونها ؟ فإذا ورد عليك كتابى هذا فاقسمها فى ولد فاطمة من على عليه السلام . فنقمت بنو أمية ذلك على عمر بن عبد العزيز ، وعاتبوه فيه ، وقالوا له : « هجنت فعل الشيخين » . وقيل إنه خرج إليه عمرو بن قيس فى جماعة من أهل الكوفة ، فلما عاتبوه على فعله قال لهم : إنكم جهلتم وعلمت ، ونسيتم وذكرت أن أبا بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم حدثنى عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فاطمة بضعة منى يسخطها ما يسخطنى ، ويرضينى ما أرضاها » . وإن فدكًا كانت صافية على عهد أبى بكر وعمر ، ثم صار أمرها إلى مروان فوهبها لعبد العزيز أبى ، فورثتها أنا وإخوتى عنه ، فسألتهم أن يبيعونى حصتهم منها ، فمن بائع وواهب حتى استجمعت ، فرأيت أن أردها على ولد فاطمة . فقالوا له : فإن أبيت إلا هذا فأمسك الأصل واقسم الغلة ، ففعل .

ثم انتزعها يزيد بن عبد الملك من أولاد فاطمة ، فصارت فى بنى مروان حتى انقرضت دولتهم ، فلما قام أبو العباس السفّاح بالأمر ، وتقلد الخلافة ، ردها على عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، ثم قبضها أبو جعفر المنصور فى خلافته من بنى الحسن ، وردّها المهدى بن المنصور

على الفاطميين ، ثم قبضها موسى بن المهدى من أيديهم .

ولم تزل فى أيدى العباسيين حتى تولى المأمون الخلافة ، فردّها على الفاطميين سنة ٢١٠ ، وكتب بذلك إلى قثم بن جعفر عامله على المدينة : « أما بعد فإن أمير المؤمنين — بمكانه من دين الله ، وخلافة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقرابة به — أولى من استنّ بسنّته ، وسلم لمن منحه منحة ، وتصدق عليه بصدقة منحته وصدقته ، وبالله توفيق أمير المؤمنين وعصمته . وإليه فى العمل بما يقربه إليه رغبته . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فدكَ ، وتصدق بها عليها ، وكان ذلك أمرًا ظاهرًا معروفًا لا اختلاف فيه بين آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تدع منه ما هو أولى به من صدق عليه ، فرأى أمير المؤمنين أن يردها إلى ورثتها ، ويسلمها إليهم ، تقربًا إلى الله تعالى بإقامة حقه وعدله ، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنفيذ أمره وصدقته ، فأمر بإثبات ذلك فى دواوينه ، والكتاب إلى عماله ، فمن كان يتادى فى كل موسم بعد أن قبض نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكر كل من كانت له صدقة أو هبة أو عدة بذلك فيقبل قوله وتنفذ عدته ، إن فاطمة رضى الله عنها لأولى بأن يصدق قولها فيما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لها . وقد كتب أمير المؤمنين إلى المبارك الطبرى مولى أمير المؤمنين يأمره برد فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بحدودها ، وجميع حقوقها المنسوبة إليها ، وما فيها من الرقيق والغلات وغير ذلك ، وتسليمها إلى محمد بن يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب لتولية

أمير المؤمنين إياهما القيام بها لأهلها ، فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين ، وما ألهمه الله من طاعته ، ووفقه له من التقرب إليه وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأعلمه من قِبَلك ، وعامل محمد بن يحيى ومحمد بن عبد الله بما كنت تعامل به المبارك الطبرى ، وأعنهما على ما فيه عمارتها ومصلحتها ووفور غلاتها إن شاء الله والسلام » .

ولما بويع المتوكل على الله انتزعها من الفاطميين ، وأقطعها عبد الله بن عمر البازيار وكان فيها إحدى عشرة نخلة غرسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الكريمة ، فوجّه عبد الله بن عمر البازيار رجلا يقال له بشران بن أبى أمية الثقفى إلى المدينة ، فصرم تلك النخيل ، ثم عاد فعلح .

وينتهى آخر عهد الفاطميين بفدك بخلافة المتوكل وسحبه إياها عبد الله ابن عمر البازيار .

هذا هو المختصر التاريخى لفدك ، وقد كان حلها يختلف باختلاف سياسة الدولة ، ويرتبط باتجاه الخليفة العام نحو أهل البيت مباشرة ، فهو إذا استقام اتجاهه واعتدل رأيه رد فدكًا على الفاطميين ، وإذا لم يكن كذلك وقع انتزاع فدك فى أول القائمة من أعمال الخليفة .

ويدلنا على مدى ما بلغته فدك من القيمة المعنوية فى النظر الإسلامى قصيدة دعبل الخزاعى التى أنشأها حينما رد المأمون فدكًا ، ومطلعها :

أصبح وجه الزمان قد ضحكا برد مأمون هاشم فدكا

وروى محمد بن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من خيبر ، قذف الله تعالى الرعب فى قلوب أهل فدك ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصالحوه على النصف من فدك ، فكانت نصف فدك

لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة له ، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، وأبقاهم فيها ، فكان صلى الله عليه وسلم يزارعهم ويساقيهم على النصف . فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم طلبت السيدة فاطمة رضى الله عنها ميراثها من أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فروى أبو بكر رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة . وإنى والله لا أغير شيئًا من صدقة رسول الله عن حالها التى كانت عليها » .

وقيل إن السيدة فاطمة احتجت عليه بقوله تعالى عن نبى من أنبيائه هو زكريا : (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) وقوله تعالى : (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) ، وأن أبا بكر قال لها : « يا بنت رسول الله أنت عين الحجة ، ومطق الرسالة ، لا يد لى بجوابك ولا أوقفك عن صوابك ، ولكن هذا أبو الحسن بينى وبينك ، هو الذى أخبرنى بما تفقدت ، وأتبأنى بما أخذت وتركت » .

وجاء فى شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة أن أبا بكر قال : « يا ابنة رسول الله ، والله ما ورث أبوك دينارًا ولا درهمًا ، وأنه قال : إن الأنبياء لا يورثون ، فقالت : إن فدكًا وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء على بن أبي طالب فشهد ، وجاءت أم أيمن فشهدت أيضًا ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها ، فقال أبو بكر : صدقت يا ابنة رسول الله ، وصدق على ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك أن مالك لأبيك كان رسول الله

يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقى ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت أصنع بها كما كان يصنع بها أبى . قال : فلك علىّ أن أصنع كما كان يصنع أبوك . قالت : الله لتفعلن ؟ قال : الله لأفعلن . قالت : اللهم اشهد ، وكان أبو بكر يأخذ غلتها ، فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ، ويقسم الباقى ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان علىّ كذلك » .

وطلبت فاطمة رضى الله عنها نحلتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت إنه نحلها فدكًا ، فطلب منها البينة ، فشهد لها على وأم أيمن رضى الله عنهم . فقال أبو بكر رضى الله عنه : قد علمت يا بنت رسول الله ، أنه لا تجوز إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين .

وفى فتوح البلدان بسنده عن أم هانئ ، أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتت أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، فقالت : ومن يرثك إذا مت؟ قال : ولدى وأهلى ، قالت : فما بالك ورثت رسول الله صلى الله عليه وسلم دوننا ؟ . فقال : يا بنت رسول الله ، والله ما ورثت أباك ذهبًا ولا فضة ولا كذا ولا كذا . فقالت : سهمنا بخيبر وصدقتنا فدك ، فقال : يا بنت رسول الله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما هى طعمة أطعمنيها الله عز وجل حياتى ، فإذا مت فهى بين « المسلمين » .

ويرى ابن أبى الحديد : أن النزاع بين فاطمة والصديق لم يكن الميراث والنحلة ، لكنّ هناك أمر ثالث منعها أبو بكر إياه ، وهو سهم ذوى القربى . وقيل إن السيدة الزهراء أتته فقالت : « قد علمت ما أفاء الله علينا من المغانم فى القرآن من سهم ذوى القربى » ثم قرأت آية الخمس : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا

غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وللرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى والْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، فقال لها أبو بكر : بأبي أنت وأمي ووالد ولدك السمع والطاعة لكتاب الله ولحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق قرابته ، وأنا أقرأ من كتاب الله تعالى الذى تقرئين منه ، ولم يبلغ علمى منه أن هذا السهم من الخمس مسلم إليكم كاملا ، قالت : أفلك هو ولأقربائك ؟ قال : لا ، بل أنفق عليكم منه وأصرف الباقى فى مصالح المسلمين ، قالت : ليس هذا حكم الله تعالى .

ولم تذعن فاطمة رضى الله عنها لرواية أبي بكر رضى الله عنه ، وبقيت مصرَّة فى طلب الميراث والنحلة . روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن فاطمة رضى الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سألت أبا بكر الصديق رضى الله عنه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقسم لها ميراثها ، ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله تعالى عليه ، فقال لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ما تركناه صدقة » ، فغضبت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهجرت أبا بكر إلى أن توفيت .

ويروى ابن سعد فى الطبقات الرواية نفسها ، وكذلك روى زيد بن على زين العابدين عن آبائه رضى الله عنهم قالوا : لما بلغ فاطمة رضى الله عنها إجماع أبى بكر على منعها فدكًا وانصراف عاملها منها ، أقبلت فى لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ أذيالها ، ودخلت على أبى بكر رضى الله عنه ، وقد حفل حوله المهاجرون والأنصار ، فنيطت دونها ملاءة ، فأنَّت أنَّة

أجهش لها القوم بالبكاء ، ثم أمهلت حتى هدأت فورتهم ، وسكنت روعتهم ، ثم افتتحت الكلام ، فحمدت الله وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وقالت كلامًا طويلاً أشرنا إليه فيما سبق . وعند ما انتهت من كلامها ، قام أبو بكر رضى الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ، ثم قال : « يا خيرة النساء ، وابنة خير الآباء ، والله ما عدوت رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما عملت إلا بأمره ، وإن الرائد لا يكذب أهله ، وقد قلت فأبلغت ، وأغلظت فأهجرت ، فغفر الله لنا ولك . أما بعد ، فقد دفعت آلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودابته وحذاءه إلى على رضِيَ الله عنه ، وأما ما سوى ذلك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا أرضاً ولا عقارًا ولا دارًا ، ولكنا نورث الإيمان والحكمة والعلم والسنة » ، فقد عملت بما أمرنى ، ونصحت له ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب » .

نستطيع أن نلخص معارضة السيدة الزهراء رضى الله عنها فى عدة مظاهر :

أولا : إرسالها لرسول ينازع أبا بكر فى مسائل الميراث ، ويطالب بحقوقها ، وهذه هى الخطوة الأولى التى انتهجتها الزهراء صلوات الله عليها تمهيدًا لمباشرتها العمل بنفسها .

ثانيًا : مواجهتها الخليفة بنفسها فى اجتماع خاص ، وقد أرادت بتلك المقابلة أن تشتد فى طلب حقوقها من الخمس وفدك وغيرهما .

ثالثاً : خطبتها فى المسجد بعد عشرة أيام من وفاة النبى صلى الله عليه كما فى شرح النهج لابن أبى الحديد .

رابعاً : حديثها مع أبي بكر وعمر حينما زاراها بقصد الاعتذار لها ، وإعلانها غضبها عليهما ، وأنهما أغضبا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بذلك (كما جاء في الإمامة والسياسة وأعلام النساء) .

خامساً : خطابها الذى ألقته على نساء المهاجرين والأنصار حين اجتماعهن عندها .

سادساً : وصيتها بألا يحضر تجهيزها ودفنها أحد .

وبعد ذلك أأخفقت الحركة الفاطمية أم نجحت ؟ يسارع العلامة السيد محمد باقر الصدر فيقول إنها أخفقت بمعنى ، ونجحت بمعنى آخر . أخفقت لأنها لم تطوح بحكومة الخليفة رضى الله عنه في زحمها الأخير الخطير الذى قامت به في اليوم العاشر من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . ولا نستطيع أن نتبين الأمور التى جعلت الزهراء تخسر المعركة ، غير أن الأمر الذى لا ريب فيه أن شخصية الخليفة من أهم الأسباب التى أدت إلى إخفاقها ، لأنه من أصحاب المواهب السياسية ، وقد عالج الموقف بلباقة ملحوظة نجد لها مثالاً فيما أجاب به الزهراء من كلام ، ووجهه إلى الأنصار من خطاب بعد انتهائها من خطبتها في المسجد ؛ فبينما هو يذوب رقة في جوابه للزهراء إذا به يطوى نفسه على نار متأججة تندلع بعد خروج فاطمة من المسجد في أكبر الظن .

ونجحت معارضة الزهراء لأنها جهرت بالحق بقوة قاهرة ، وأضافت إلى طاقته على الخلود في ميدان النضال المذهبي طاقة جديدة ، وقد سجلت هذا النجاح في حركتها كلها ، وفي محاورتها مع الصديق والفاروق عند زيارتهما لها بصورة خاصة ، إذ قالت لهما : « أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرفانه وتفعلان به ؟ فقالا : نعم - فقالت : « نشدتكما الله ألم تسمعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:رضا فاطمة من رضاى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة فقد أحبنى ومن أرضى فاطمة فقد أرضانى ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطنى ؟ قالا : نعم ، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : فانى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتمانى وما أرضيتمانى ، ولئن لقيت النبى صلى الله عليه وسلم لأشكونكما عنده » .

هذه فكرة السيدة الزهراء رضى الله عنها ، وهذه وجهة نظرها ،فهى كانت تعتقد أن النتيجة التى حصلت عليها هى الفوز المؤكد فى حساب العقيدة والدين ، يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز : (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا . إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا . وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ – يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى) .

والتفتت فاطمة رضى الله عنها إلى أهل المسجد ، فقالت للمهاجرين والأنصار كلمة بليغة .

ووجهت وجهها شطر قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقالت :

قد كان بعدك أنباء وهنيئة ... ولو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

إنا فقدناك فقْدَ الأرض وابلها ... واجتث أهلك مذغيت واغتصبوا

أبدت رجال لنا فحوى صدورهم ... لما نأيت وحالت بيننا الكثب

تهجمتنا ليال واستخف بنا دهر فقد أدركوا منا الذى طلبوا
قد كنت للخلق نوراً يستضاءُ به عليك تنزل من ذى العزة الكتب
وكان جبريل بالآيات يؤنسنا فغاب عنا فكل الخير محتجب

وقال أبو بكر رضى الله عنه : صدقت يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كان أبوك بالمؤمنين رءُوفاً رحيماً ، وعلى الكافرين عذاباً أليماً ، وكان والله إذا نسبناه وجدناه أباك دون النساء ، وأخا بن عمك دون الرجال ، آثره على كل حميم ، وساعده على الأمر العظيم ، وأنتم عترة نبى الله الطيبون ، وخيرته المنتجبون ، على طريق الجنة أدلتنا وأبواب الخير لسالكينا ، فأما ما سألت فلك ما جعله أبوك ، وأنا مصدق قولك لا أظلم حقك ، وأما ما ذكرت من الميراث فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » .

ولم تأت المناقشة بين الزهراء والصديق بنتيجة ، وكفت السيدة فاطمة عن طلبها عزوفة ، ولم تشتد السيدة الزهراءُ فى طلبها إلا لاعتقادها بأنها على حق ، وما كانت لتضمر لأبي بكر إلا الخير ، وإن اختلفت معه فى وجهة نظرها ، وقد هدأت ثائرتها ، وقد ثبت فى نفوس ذريتها ألا يكون فى نفس واحد منهم بالنسبة لأبي بكر شيءٌ ، وأخذت السيدة فاطمة رضى الله عنها على نفسها ألا تكلم أبا بكر رضى الله عنه فى ذلك المال أو تطلب ما طلبته ، وتركت لقاءه فى مدتها القصيرة التى اشتغلت فيها بحزنها ، ثم بمرضها .

وبعد ثمانين عاماً ، وبعيداً عن الخصومة نستمع ما قاله عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة ، فقد قال : « إن فدكاً كانت مما أفاء الله على رسوله ، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب ، فسألته إياها فاطمة رضى

الله عنها ، فقال ما كان لك أن تسأليني ، وما كان لى أن أعطيك ، فكان يضع ما يأتيه منها فى أبناء السبيل . ثم ولى أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ولى معاوية ، فأقطعها مروان بن الحكم ، فوهبها مروان لأبى ولعبد الملك ، فصارت لى وللوليد وسليمان ، فلما ولى الوليد سألته حصته منها فوهبها لى ، وسألت سليمان حصته منها فوهبها لى ، فاستجمعتها ، وما كان لى من مال أحب إلى منها ، فاشهدوا أنى قد رددتها إلى ما كانت عليه » . كما سبق وبينت ذلك بالتفصيل .

ثم ردها على ولد علىّ من فاطمة رضى الله عنهم .

ويقول أستاذنا الشيخ أحمد فهمى : إنه كان لأبى بكر رضى الله عنه شبهة فى منع السيدة فاطمة رضى الله عنها « فدكًا » ، فلم يكن بالدى يفتات عليها ، أو يظلمها حقها ، أو يتهضمها فى نحلتها ، إذ أن حديث أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » ، كان يتمثله ويتذكره ، فلا يرضى أن يحيد عنه . . .

وقد قابلها — وهو يعرف أنها حزينة لفقد أبيها صلى الله عليه وسلم وقد استشعرت نشوة الضعف وقلة الناصر - مقابلة رقيقة كريمة يراها واجبة عليه لبضعة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وكانت رضى الله عنها كلما ازدادت عليه شدة ازداد لها ليناً ورقة ، فإنها لما قالت له : والله لا أكلمك أبدًا ، قال : والله لا أهجرك أبدًا .

وقيل إنها لما قالت له : والله لأدعون الله عليك ، أجابها بقوله : والله لأدعون الله لك .

فقد تحمل منها هذه الشدة فى دار الخلافة ، وبحضرة قريش والصحابة رضى الله عنهم ، مع حاجة الخلافة إلى التنزيه ، وما يجب لها من الرفعة والهيبة ، لكن ذلك لم يمنعه أن قال معتذراً متقرباً كلام المعظم حقها ، المكبر مقامها ، الصائن وجهها : ما أحد أعز علىّ منك فقراً ، ولا أحد أحب إلىّ منك غنى ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنا معاشر الأنبياء لا نورث ، وما تركناه فهو صدقة . بأبى أنت وأمى ، وبأبى أبوك وأمى ونفسى إن كنت سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، أو أمرك بشىء ، لم أتبع غير ما تقولين ، وأعطيتك ما تبتغين ، وإلا فإنى أتبع ما أمرت به ، وكل أولئك آيات على براءة أبى بكر رضى الله عنه ، وإنه ليظهر فى أجوبته لها ، والتحدث إليها الإكبار والإجلال . كيف لا ؟ ! وهى حبيبة أبيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد قال لها : يا فاطمة ، إن الله عز وجل يغضب لغضبك ، ويرضى لرضاك . ولم تلبث رضى الله عنها أن قالت له : أنت ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم ، ما أنا بسائلتك بعد مجلسى هذا .

وأخيرًا فنعم الحكمة القائلة بأن الزهراء أجلّ من أن تطلب ما ليس لها بحق ، وأن الصديق أجلّ من أن يسلبها حقها الذى تقوم البينة عليه .

مرضها :

كانت السيدة فاطمة نحيلة ، وقد رآها النبى صلى الله عليه وسلم فى مرض وفاته فقال لها : إنها أسرع أهله لحوقاً به ، فلم يمض أكثر من خمسة وسبعين يومًا حتى لحقت به فى تلك السن التى تستقبل فيها الحياة .

وقد اختلف فى مدة بقائها بعد أبيها صلى الله عليه وسلم ، فقيل : أربعون يوماً ، ويمكن كونه اشتباهاً بمدة مرضها ، وقيل : خمسة وأربعون يوماً ، وقيل : شهران (رواه الحاكم فى المستدرك بسنده عن عائشة) ، وفى الاستيعاب عن ابن عبد البر سبعون يوماً ، وقيل : ثلاثة أشهر ، وهو الذى اعتمده أبو الفرج الأصفهاني وقيل : إن مرضها استمر أربعين يوماً ، وقيل : خمسة وتسعون يوماً .

وكانت السيدة الزهراء رضى الله عنها تشكو حيناً بعد حين ، ويعودها النبى صلى الله عليه وسلم يواسيها فى مرضها ، ويواسيها كذلك فى حاجتها . وزارها يوماً وهى مريضة فقال لها : « كيف تجدينك يا بنية ؟ » فقالت : « إني لوجعة » ، ثم قالت : « وإنه ليزيدني أنى ما لى طعام آكله » ، فقال لها عليه السلام : « يا بنية أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين ؟ » وزارها يوماً وهى تطحن بالرحى ، وعليها كساء من وبر الإبل ، فبكى وقال : « تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة » .

ومنذ أن فجعت بوفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفوجئت بمنع أبى بكر رضى الله عنه إياها حقها فى فدك ، تأثرت تأثراً عظيماً ، فأصبحت شاكية ، وكانت لا ترى إلا وهى معصبة الرأس ، ولما اشتد عليها المرض اجتمعت إليها نساء المهاجرين والأنصار ليعدنها ، فسلمن عليها ، وقلن لها : كيف أصبحت من علتك يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فحمدت الله تعالى ، وصلت على أبيها ، وقالت : « أصبحت والله عائفة لدنياكن ، قالية لرجالكن ، لفظتهم بعد أن عجمتهم ، وشأتهم بعد أن سبرتهم ، فقبحاً لفلول الحسد ، واللعب بعد الجد ، وقرع الصفاة ،

وصدع القناة ، وخطل الآراء ، وزلل الأهواء ، لبئسما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون ، لا جرم والله لقد قلدتهم ربقتها ، وحملتهم أوبقتها ، وشنت عليهم غارتها ، فجدعاً وعقراً وبُعْداً للقوم الظالمين ، ويحهم أنى زعزعوها عن رواسى الرسالة ، وقواعد النبوة والدلالة ، ومهبط الروح الأمين والعالمين بأمور الدنيا والدين ، ألا ذلك هو الخسران المبين ، وما الذى نقموا من أبى الحسن ؟ نقموا منه والله نكير سيفه ، وقلة مبالاته بحتفه ، وشدة وطأته ، ونكال وقعته ، وتنمره فى ذات الله عز وجل . وتالله لو مالوا عن المحجة اللائحة ، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة ، لردهم إليها وحملهم عليها ، وتالله لوتكافوا عن زمام نبذه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم لسار بهم سيراً سجحاً ، لا يكلم خشاشه ، ولا يكلّ سائره ، ولا يميل راكبه ، ولأوردهم منها نميراً صافياً ، روياً فضفاضاً ، تطفح ضفته ، ولا يترنق جانباه ، ولأصدرهم بطاناً ، ونصح لهم سرًّا وإعلاناً ، ولم يكن يتحلّى من الغنى بطائل ، ولا يحظى من الدنيا بنائل ، غير رى الناهل ، وشبعة الكافل ، ولبان لهم الزاهد من الراغب ، والصادق من الكاذب : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ، (وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) ، ألا هلم فاستمع ، وما عشت أراك الدهر عجباً ، وإن تعجب فعجب قولهم ! ليت شعرى ! إلى أى لجأ لجأوا ، وإلى أى سناد استندوا ، وعلى أى عماد اعتمدوا ، وبأى عروة تمسكوا ، وعلى أى ذرية قدموا واحتنكوا ، لبئس المولى ، ولبئس العشير ، وبئس للظالمين بدلا . استبدلوا والله الذنابى بالقوادم ، والعجز بالكاهل ،

فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) ويحهم ! (أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ، أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) . . . إلخ .

منامها قبل وفاتها :

عن أبي عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه ، قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترك إلا الثقلين : كتاب الله عزّ وجل ، وعترته أهل بيته . وكان قد أسر إلى فاطمة رضي الله عنها أنها لاحقة به ، وأنها أول أهل بيته لحوقاً به ، فقالت رضي الله عنها : « بينما أنا نائمة بعد وفاة أبي بأيام إذ رأيت كأن أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أشرف عليّ ، فلما رأيته لم أملك نفسي أن ناديت : يا أبتاه ، انقطع عنا خبر السماء . فبينما أنا كذلك إذ أتتني الملائكة صفوفًا يقدمها ملكان حتى أخذابي فصعدابي إلى السماء ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بقصور مشيدة ، وبساتين وأنهار ، تطرد قصرًا بعد قصر ، وبستانًا بعد بستان ، وإذا قد طلع عليّ من تلك القصور جوارٍ كأنهن الدمى مستبشرات يضحكن إليّ ، ويقلن : مرحبًا بمن خلقت لها الجنة ، وخلقنا نحن من أجل أبيها . ولم تزل الملائكة تصعدني حتى أدخلوني إلى دار فيها قصور ، وفي كل قصر بيوت فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وفيها من السندس والإستبرق ، وعلى الأسرة الكثير منها ، وعليها الألحفة من الحرير والديباج بألوان شتى ، ومن أواني الذهب والفضة ما يأخذ بالأبصار ، وعليها ألوان الطعام ، وفي تلك الجنان نهر أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى مذاقاً من العسل ، وأطيب

رائحة من المسك . فقلت : لمن هذه الدار ؟ وما هذه الأنهار ؟

فقالوا : هذه الدار هى الفردوس الأعلى الذى ليس بعده جنة ، وهى دار أبيك ومن معه من النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، ومن أحب الله عز وجل من الشهداء والصديقين ، وهذا هو نهر الكوثر الذى وعد الله تعالى أباك صلى الله عليه وسلم أن يعطيه إياه . قلت : فأين أبي ؟ قالوا : الساعة يدخل عليك . فبينما أنا كذلك إذ برزت لى قصور أشد بياضاً من تلك القصور ، وفرش هى أحسن من تلك الفرش ، وإذا أنا بفرش مرتفعة على أسرة ، وإذا أبى جالس على تلك الفرش ومعه جماعة ، فأخذنى وضمنى وقبل ما بين عينى ، وقال : مرحباً بابنتى ، وأقعدنى فى حجره ، ثم قال : يا حبيبتى ، أما ترين ما أعد الله لك ، وما تقدمين عليه ؟ وأراني قصوراً مشرفات فيها ألوان الطرائف والحلى والحلل ، وقال : هـــذا مسكنك ومسكن زوجك وولديك ومن أحبك وأحبهم ، فطيبى نفساً ؛ فإنك قادمة علىّ بعد أيام . قلت : فطار قلبى ، واشتد شوقى ، فانتبهت مرعوبة » .

وفى ليلة [1] الثلاثاء ٣ من رمضان سنة إحدى عشرة توفيت السيدة الزهراء ، وهى بنت ثمان وعشرين سنة . وقبيل وفاتها كانت فرحة مسرورة لعلمها باللحاق بأبيها الذى بشرها أنها تكون أول أهل بيته لحوقاً به ، وعمدت

---

(١) وفى رواية عن الصادق توفيت فى الثالث من جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة من الهجرة ، وروى أنها توفيت لعشر بقين من جمادى الآخرة ، وقيل لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر ليلة الأحد .

وعن أبي عباس فى الحادى والعشرين من رجب . أما الأرجح فهو ما قاله المدائنى والواقدى وابن عبد البر فى الاستيعاب إنها توفيت ليلة الثلاثاء ٣ من رمضان ، وكذلك روى الحاكم فى المستدرك .

لولديها فغسلت لهما ، وأمرتهما بالخروج لزيارة قبر جدهما ، فخرجا وهما يفكران فى الأمر هل أنهكت أمهما العلة ، وأضر الداء بها حتى لا تستطيع أن تمضى إلى بيت الأحزان الذى ألفته ، أو أنها تريد أن تبكى فى هذا اليوم فى ثوبها ؟ وكيف البكاء وشيوخ المدينة قد منعوها من البكاء ؟ وغرقا فى بحر من الهموم وتيار الهواجس .

والتفتت إلى أسماء بنت عميس ، وكانت تتولى خدمتها وتمرضها ؛ فقالت لها : يا أماه .

– نعم يا حبيبة رسول الله .

– اسكبى لى غسلا .

فانبرت وأتتها بما طلبته من الماء ، فاغتسلت فيه ، وهى على أحسن ما تكون . وقالت لها : ايتينى بثيابى الجدد .

فناولتها ثيابها ، وهتفت بها ثانية : اجعلى فراشى وسط البيت .

فذهلت المرأة ، وقامت تتعثر بأذيالها ، فصنعت لها ذلك ، فاطجعت على فراشها ، واستقبلت القبلة ، والتفتت إلى أسماء قائلة :

نفسى على زفراتها محبوسة يا ليتها خرجت مع الزفرات
لا خير بعدك فى الحياة وإنما أبكى مخافة أن تطول حياتى

وروى ابن سعد فى الطبقات بسنده عن أبى رافع عن أسماء ، وفى الإصابة أخرج ابن سعد وأحمد بن حنبل من حديث أم رافع قالت : مرضت فاطمة ؛ فلما كان اليوم الذى توفيت فيه خرج علىّ ، فقالت لى : يا أمه ، اسكبى لى غسلا ، فسكبت لها ، فاغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم قالت : ايتينى بثيابى الجدد ، فأتيتها بها فلبستها ، ثم قالت : اجعلى فراشى وسط

البيت فجعلته ، فاضطجعت عليه ، واستقبلت القبلة ؛ ثم قالت لى : يا أمه ؛ إني مقبوضة الساعة ، وقد اغتسلت ، فلا يكشفن لى أحد كتفًا .

وفى رواية أن أعرابيًا جاء من الشام ، وابن عباس كان فى المسجد الحرام يفتي الناس ، فسأله عن أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم وبناته ، فأخبره أن أبناءه كانوا خمسة : القاسم والطاهر والمطهر والطيب ، وهم من خديجة رضى الله عنها ،وإبراهيم من مارية . وبناته كن أربعاً : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، وكن أيضاً من خديجة ، وكلهم مات فى حياته صلوات الله عليه إلا فاطمة فإنها بعيت أربعين يوماً من بعده .

ولما جاء أجل فاطمة لم تحم ولم تصدع ، ولكن أخذت بيدى الحسن والحسين فذهبت بهما إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فأجلستهما عنده ، ثم وقفت ، فصلت بين المنبر والقبر ركعتين ، ثم ضمتهما إلى صدرها والتزمتهما .

وقالت : يا ولدى ؛ اجلسا عند أبيكما ساعة ، والإمام علىّ عليه السلام يصلى فى المسجد . ثم رجعت نحو المنزل ، فحملت ما فضل من حنوط النبى صلى الله عليه وسلم فاغتسلت به ، ولبست فضل كفنه ، ثم نادت : يا أسماء !

فقالت لها : لبيك يا بنت رسول الله .

فقالت : تعاهديني ، فإني أدخل هذا البيت . فأضع جنبي ساعة ، فإذا مضت ساعة ولم أخرج ، فناديني ثلاثاً ، فإن أجبتك ، وإلا فاعلمى أني لحقت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم قامت مقام الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيتها ، فصلت ركعتين ،

ثم جللت وجهها بطرف ردائها ، وقضت نحبها ، وقيل بل ماتت فى سجدتها .

فلما مضت ساعة أقبلت أسماء فنادت : يا فاطمة الزهراء ، يا أم الحسن والحسين ، يا بنت رسول الله ، يا سيدة نساء العالمين ! !

فلم تجب ، فدخلت فإذا هى ميتة .

فقال الأعرابي : كيف علمت وقت وفاتها يا ابن عباس ؟

قال : أعلمها أبوها .

ثم شقت أسماء جيبها ، وقالت : كيف أجترئ فأخبر ابنى رسول الله بوفاتك ؟ ثم خرجت ، فتلقاها الحسن والحسين فقالا : أين أمنا ؟ فسكتت ، فدخلا البيت فإذا هى ممتدة ، فحركها الحسين ، فإذا هى ميتة ، فقال : يا أخاه آجرك الله فى أمنا .

وصاح أهل المدينة لما علموا بخبر وفاتها ، واجتمعت نساء بنى هاشم فى دارها فصرخن صرخة واحدة ، كادت المدينة تتزعزع منها ، وهن يقلن يا سيدتاه ، يا حبيبتاه ، يا بنت رسول الله . وأقبل الناس إلى على رضى الله عنه وهو جالس ، والحسن والحسين رضى الله عنهما بين يديه يبكيان ، فبكى لبكائهما . واجتمع الناس فجلسوا وهم يسترجعون وينتظرون أن تخرج الجنازة فيصلوا عليها ، فخرج أبو ذر الغفارى ، وقال : « انصرفوا ، فإن ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخر إخراجها هذه العشية » . فقام الناس وانصرفوا .

وصيتها :

فى كتاب روضة الواعظين أن فاطمة رضى الله عنها لم تزل بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم مهمومة مغمومة ، محزونة مكروبة ، كئيبة باكية . فلما نعيت إليها نفسها دعت أم أيمن وأسماء بنت عميس وعليًّا عليه السلام .

فقالت : يا ابن عم ، إنه قد نعيت إلى نفسى ، وإننى لا أرى ما بى إلا أننى لاحقة بأبى ساعة بعد ساعة ، وأنا أوصيك بأشياء فى قلبى .

فقال علىّ رضى الله عنه أوصينى بما أحببت يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجلس عند رأسها ، وأخرج من كان فى البيت .

ثم قالت : يا ابن عم ، ما عهدتنى كاذبة ولا خائفة ، ولا خالفتك منذ عاشرتنى .

فقال علىّ : معاذ الله ! أنت أعلم بالله تعالى ، وأبر وأتقى وأكرم وأشد خوفاً من الله تعالى ، وقد عز علىّ مفارقتك وفقدك ، إلا أنه أمر لا بد منه ، والله لقد جددت علىّ مصيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجل فقدك ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم بكيا جميعاً ساعة ، وأخذ علىّ رأسها وضمّه إلى صدره ، ثم قال : أوصينى بما شئت !

وقد أوصت الزهراء عليًّا بثلاث وصايا :

١ – أن يتزوج بأمامة بنت أختها زينب رضى الله عنها ، وهى بنت أبى العاص بن الربيع ، وهى التى روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحملها فى الصلاة ، فقد ثبت ذكرها فى الصحيحين من حديث

أبى قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحمل أمامة بنت زينب على عاتقه ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها . وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهديت له هدية فيها قلادة من جزع ، فقال لأدفعها إلى أحب أهلى إلىّ ، فقالت النساء : ذهبت بها ابنة أبي قحافة ! فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامة بنت زينب فأعلقها فى عنقها . وأهدى النجاشى إلى النبي صلى الله عليه وسلم حلية فيها خاتم من ذهب فصه حبشى فأعطاه أمامة .

وفى اختيار السيدة الزهراء أمامة قالت : إنها تكون لولدى مثلى فى حنوى وروءمتى ؛ وفى رواية قالت : إنها بنت أختى وتحنو على ولدى .

فلما توفيت الزهراء تزوج أمير المؤمنين أمامة كما أوصته .

٢ – أن يتخذ لها نعشاً وصفته له . وفى رواية أن أسماء بنت عميس قالت لها إنى حين كنت بأرض الحبشة رأيتهم يصنعون شيئاً ، فإن أعجبك أصنعه لك ، فدعت بسرير فأكبته لوجهه ثم دعت بجرائد فشدتها على قوائمه ، وجعلت عليه نعشاً ثم جللته ثوباً ، فقالت فاطمة رضى الله عنها : اصنعى لى مثله ، استرينى سترك الله

وفى الاستيعاب بسنده أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لأسماء بنت عميس : إنى قد استقبحت ما يصنع بالنساء . إنه يطرح على المرأة الثوب فيصفها . فقالت أسماء : يا بنت رسول الله ، ألا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة ؟ فدعت بجرائد رطبة فحنتها ثم طرحت عليها ثوباً ، فقالت فاطمة : ما أحسن هذا وأجمله ! تعرف به المرأة من الرجل ، ثم قال : إن فاطمة : أول من عطى نعشها من النساء فى الإسلام على الصفة

المذكورة ، ثم بعدها زينب بنت جحش رضى الله عنهما . ويروى أن السيدة الزهراء كانت مهتمة كثيراً بأمر وضعها على السرير ، وأنها عندما وصفت لها أسماء النعش ابتسمت بذلك بعد أن لم تر ضاحكة ولا متسمة بعد وفاة أبيها إلى ذلك الحين كما قلنا سابقاً . وروى الحاكم فى المستدرك بسنده عن على بن الحسين عن ابن عباس قال : مرضت فاطمة مرضاً شديداً ، فقالت لأسماء بنت عميس . ألا ترين إلى ما بلغت ؟ أحمل على السرير ظاهراً ! فقالت أسماء لا ، لعمرى ، ولكن أصنع لك نعشاً كما رأيت يصنع بأرض الحبشة ، قالت : فأريني . فأتت أسماء بجرائد رطبة ، وجعلت على السرير نعشاً . وهو أول ما كان النعش ، قالت أسماء : فتبسمت فاطمة ، وما رأيتها متسمة بعد أبيها إلا يومئذ .

٣ - ألا يشهد أحد جنازتها ، ممن كانت غاضبة عليهم ، وأن تدفن ليلا ، كذلك أوصت علياً أن تحنط بفاضل حنوط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يغسلها فى قميصه ، ولا يكشفه عنها ، وقيل إنها أوصت لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم لكل واحدة منهن باثنتى عشرة أوقية من الفضة ، ولنساء بنى هاشم مثل ذلك ، وأوصت لأمامة بنت أختها زينب رضى الله عنهن بشىء مما تركته .

وتنفيذاً لوصية السيدة الزهراء دفنت ليلا بالبقيع[1] ، وصلى عليها

---

(١) واختلف فى موضع دفنها ، فقيل دفنت فى بيتها . وقيل دفنت فى البقيع وسوّى على قبرها قبوراً مزورة حتى لا يعرف أحد موضعه .

ولأى الأمور تدفن سراً ... بضعة المصطفى ويعفى ثراها

وثوت لا يرى لها الناس مثوى ... أى قدس يضمه مثواها

الإمام رضى الله عنه ، ونزل فى قبرها ، ولم يكن معه سوى الصفوة من أصحابه ، تنفيذاً لوصيتها ، ثم وقف على حافة القبر يؤبنها بكلمات تنم عن قلب أفعم بالحسرات ، وقال متجهاً إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يا رسول الله عنى وعن ابنتك وزائرتك النازلة فى جوارك ، والباثة فى الثرى ببقعتك ، والسريعة اللحاق بك ، قل يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورقّ عنها تجلدى ، إلا أن لى فى التأسى بعظيم فرقتك ، وفادح مصيبتك ، موضع تَعَزٍّ ، فلقد وسدتك فى ملحود قبرك ، وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، فلقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة ، أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت مقيم ، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها ، فأحفها السؤال ، واستخبرها الحال ، هذا ولم يطل العهد ، ولم يخلق منك الذكر ، والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سئِم ، فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين ».

حزن الإمام على وفاتها :

لما فرغ سيدنا علىّ رضى الله عنه من دفن زوجته العزيزة الزهراء ، رجع إلى البيت ، فاستوحش فيه ، وجزع جزعاً شديداً ، ثم أنشأ يقول :

أرى علل الدنيا علىّ كثيرة ... وصاحبها حتى الممات عليل
لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وكل الذى دون الفراق قليل
وإن افتقادى فاطماً بعد أحمد ... دليل على ألا يدوم خليل

واستن الإمام سنّة حميدة ، فكان يزور قبر فاطمة الزهراء كل يوم ،

وذات يوم أقبل على القبر الشريف ، فانكب عليه ، وأخذ يبكى ، وأنشأ يقول :

ما لى مررت على القبور مسلماً قبر الحبيب فلم يرد جوابي
يا قبر مالك لا تجيب منادياً أملت بعدى خلة الأحباب

وقد رأينا أنه – تنفيذاً لوصية الزهراء – قد دفنت ليلا ، ولم يحضر مع الإمام سوى الصفوة المختارة من أصحابه ، ولما علم المسلمون بوفاتها جاءوا إلى البقيع ، فوجدوا فيه أربعين قبراً ، فأشكل عليهم موضع قبرها من سائر القبور ، فضج الناس ، ولام بعضهم بعضاً ، وقالوا لم يخلف نبيكم إلا بنتاً واحدة تموت وتدفن ولم تحضروا وفاتها والصلاة عليها ، ولا تعرفون قبرها ، ثم قال ولاة الأمر منهم : هاتوا من نساء المسلمين من ينبش هذه القبور حتى نجدها ، فنصلى عليها ، ونزور قبرها . فبلغ ذلك الإمام عليًّا ، فخرج مغضباً قد احمرت عيناه ، ودرت أوداجه وعليه قباؤه الأصفر الذى كان يلبسه فى كل كريهة ، وهو متكئ على سيفه ذى الفقار ، حتى ورد البقيع ، فسار إلى الناس النذير وقالوا : هذا علىّ بن أبي طالب قد أقبل كما ترونه ، يقسم بالله لئن حول من هذه القبور حجر ليضعن السيف على غابر الآخر ، فتلقاه بعضهم ، فقال له : مالك يا أبا الحسن ، والله لننبشنّ قبرها ، ولنصلين عليها ، فضرب الإمام بيده إلى جوامع ثوبه ، فهزه ثم ضرب به الأرض ، وقال : أما حق فقد تركته مخافة أن يرتد الناس ، وأما قبر فاطمة فوالله الذى نفس علىّ بيده لئن رمت وأصحابك شيئاً من ذلك لأسقين الأرض من دمائكم ، فإن شئت فأعرض . فتلقاه آخر ، فقال : يا أبا الحسن ، بحق رسول الله ، وبحق من فوق العرش إلا خليت

عنه ، فإنا غير فاعلين شيئاً تكرهه ، فخلى عنه ، وتفرق الناس ، ولم يعودوا إلى ذلك .

ما أثر عنها من الدعاء :

فى منهج الدعوات أثر عن السيدة الزهراء رضى الله عنها : « اللهم قنعنى بما رزقتنى ، واسترنى ، وعافنى أبداً ما أبقيتنى واغفر لى وارحمنى إذا توفيتنى ، اللهم لا تفتنى فى طلب ما لم تقدّر لى ، وما قدّرته علىّ فاجعله ميسراً سهلا ، اللهم كافئ عنى ولدى ، وكل من له نعمة علىّ خير مكافأتك ، اللهم فرغنى لما خلقتنى له ، ولا تشغلنى بما تكفلت لى به ، ولا تعذبنى وأنا أستغفرك ، ولا تحرمنى وأنا أسألك ، اللهم ذلل نفسى فى نفسى ، وعظم شأنك فى نفسى ، وألهمنى طاعتك ، والعمل بما يرضيك ، والتجنب لما يسخطك ، يا أرحم الراحمين » .

ومنه دعاء علمها إياه النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم ربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء ، صل على محمد وعلى أهل بيته عليه وعليهم السلام ، واقض عنى الدين ، وأغننى من الفقر ، ويسر لىَ كل أمر ، يا أرحم الراحمين » .

وفى الإحياء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا فاطمة ، ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به أن تقولى : يا حىّ يا قيوم برحمتك أستغيث ، اللهم

لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله » .

وفى روض الأفكار : جاءت فاطمة رضى الله عنها تطلب شيئاً من النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : « والذى نفسى بيده ، ما اقتبس آل محمد ناراً منذ ثلاثين يوماً ، ألا أعلمك خمس كلمات علمنيهن جبريل ، قالت : نعم ، قال قولى : يا أول الأولين ويا آخر الآخرين ، ويا ذا القوة المتين ، ويا أرحم الراحمين ، أغننا واقض حاجتنا » .

وقالت فاطمة رضى الله عنها : رغّب النبى صلى الله عليه وسلم فى الجهاد ، وذكر فضله ، فسألته الجهاد فقال : ألا أدلك على شىء يسير وأجره كبير ، ما من مؤمن ولا مؤمنة يسجد عقب الوتر سجدتين ويقول فى كل سجْدة : سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، خمس مرات لا يرفع رأسه حتى يغفر الله ذنوبه كلها ، واستجاب الله دعاءه وإن مات فى ليلته مات شهيداً .

وقالت السيدة الزهراء لسلمان : إن أردت أن تلقى الله عز وجل وهو عليك غير غضْبان فواظب على هذا الدعاء وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم ، باسم الله النور ، باسم الله الذى يقول للشىء كن فيكون ، باسم الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، باسم الله الذى خلق النور من النور ، باسم الله الذى هو بالمعروف مذكور ، باسم الله الذى أنزل النور على السطور ، بقدر مقدور فى كتاب مسطور على نبى محبور » .

ومن دعاء علمته ولدها الحسن رضى الله عنه : « الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ، ولا يخيب من دعاه ، ولا يقطع رجاء من رجاه — ثم يسأل الله عز وجل ما يريد » .

لم ير الله للرسالة أجراً ... غير حفظ الزهراء فى قرباها
يوم جاءت يا للمصاب إليهم ... ومن الوجد ما أطال بكاها
فدعت واشتكت إلى الله شكوى ... والرواسى تهتز من شكواها
فاطمأنت لها القلوب وكادت ... أن تزول الأحقاد ممن حواها
تعظ القوم فى أتم خطاب ... حكت المصطفى به وحكاها
أيهـــا القوم راقبوا الله فينـا ... نحن من روضة الجليل جناها
نحن من بارئ السموات سر ... لو كرهنا وجودها ما براها
بل بآثارنا ولطف رضانا ... سطح الأرض والسماء بناها
وبأضوائنا التى ليس تخبو ... حوت الشهب ما حوت من سناها
واعلموا أننا مشاعر دين الله ... فيكم فأكرموا مثواهـا
ولنـا من خزائن الغيب فيض ... يرد المهتدون منه هداها
إن تروموا الجنان فهى من الله ... إلينـا هدية أهداها
هى دار لنـا ونحن ذووها ... لا يرى غير حزبنـا مرآها
وكذاك الجحيم سجن عـدانا ... حسبهم يوم حشرهم سكناها
أيهـا الناس أى بنت نبى ... عن مواريثهـا أبوها زواها
كيف يزوى عنى تراثى زاو ... بأحاديث من لدنه ادعاها
هذه الكتب فاسألوها تروهـا ... بالمواريث ناطقاً فحواها
وبمعنى يوصيكم الله أمر ... شامل للعباد فى قرباها
كيف لم يوصنا بذلك مولا ... نا وتلكم من دوننـا أوصاها
هل رآنا لا نستحق اهتداء ... واستحقت هى الهـدى فهداها
أو تراه أضلنـا فى البرايا ... بعد علم لكى نصيب خطاها

ما لكم قد منعتمونا حقوقاً أوجب الله فى الكتاب أداها
قد سلتم من الخلافة خوداً كان منـا قناعها ورداها
ولأى الأمور تدفن سراً بضعة المصطفى ويعفى ثراها
فمضت وهى أعظم الناس وجداً فى فم الدهر غصة من جواها
وثوت لا يرى لها الناس مثوى أى قدس يضمه مثواها

ويقول الأستاذ أحمد فهمى محمد:

لذ بالبتول وناد بالزهراء واضرع لِرَبِّكَ خيفةً بدعاء
وارفع لفاطمة اللواء فإنها بنت الرسول سليلة الحنفاء
حورية إنسية فُطرت على خلقٍ سما فى الذّروة العلياء
فاقتْ نساء العالمين وإنها يوم القيامةِ تزدهى بسناء
والله يغضب حين تغضب فاطم والله يرضى فى مقام رضاء
شهد الخلائق أنهـا لكريمة وهى اللياذُ لنا من اللأواء
وهى الوسيلةُ للنجاةِ وعصمة وذخيرة العانى من الضراء
ولها الشفاعة فى العُصاة وجنّةٌ ولنـا بها الزلفى ليوم لقاء
فالله ينفعنا بهـا وبنسلها حتى نصير بهم مع السُّعداء

الشعراء والزهـــراء

لعل خير ما أختم به كتابي هذا عن السيدة الزهراء رضى الله عنها ما ترجمه العلامة الشيخ الصاوى شعلان عن قصيدة للشاعر السيد محمد إقبال شاعر الباكستان فى السيدة الزهراء :

نسب المسيح بنى لمريم سيرة ... بقيت على طول المدى ذكراها
والمجد يشرق من ثلاث مطالع ... فى مهد فاطمة فما أعلاها
هى بنت من ، هى زوج من ، هى أم من
من ذا يدانى فى الفخار أباها
هى ومضة من نور عين المصطفى ... هادى الشعوب إذا تروم هداها
هو رحمة للعالمين وكعبة الـ ... آمال فى الدنيا وفى أخراها
من أيقظ الفطر النيام بروحه ... وكأنه بعد البلى أحياها
وأعاد تاريخ الحياة جديدة ... مثل العرائس فى جديد حلاها
ولزوج فاطمة بسورة هل أتى ... تاج يفوق الشمس عند ضحاها
أسد بحصن الله يرمى المشكلا ... ت بصيقل يمحو سطور دجاها
إيوانه كوخ وكنز ثرائه ... سيف غدا بيمينه تيّاها
فى روض فاطمة نما غصنان لم ... ينجبهما فى البيرات سواها
فأمير قافلة الجهاد .وقطب دا ... ئرة الوئام والاتحاد ابناها
حسن الذى صان الجماعة بعدما ... أمسى تفرقها يحل عراها
ترك الخلافة ثم أصبح فى الديا ... ر إمام ألفتها وحسن علاها

وحسين فى الأحرار والأبرار ما أزكى شمائله وما أندادها
فتعلموا رى اليقين من الحسي ن إذا الحوادث أظلمت بدجاها
وتعلموا حرية الإيمان من صبر الحسين وقد أجاب نداها
الأمهات يلدن للشمس الضيا ء وللجواهر حسنها وصفاها
ماسيرة الأبناء إلا الأمها ت فهم إذا بلغوا الرقى صداها

* * *

هى أسوة للأمهات وقدوة يترسم القمر المنير خطاها
لما شكا المحتاج خلف رحابها رقت لتلك النفس فى شكواها
جادت لتنقذه برهن خمارها يا سحب أين ندالك من جدواها
نور تهاب النار قدس جلاله ومنى الكواكب أن تنال ضياها
جعلت من الصبر الجميل غذاءها ورأت رضا الزوج الكريم رضاها

* * *

فمها يردد آى ربك بينما يدها تدير على الشعير رحاها
بلت وسادتها لآلئ دمعها من طول خشيتها ومن تقواها
جبريل نحو العرش يرفع دمعها كالطل يروى فى الجنان رباها
لولا وقوفى عند أمر المصطفى وحدود شرعته ونحن فداها
لمضيت للتطواف حول ضريحها وغمرت بالقبلات طيب ثراها

* * *

ويقول الشيخ ملا كاظم الأزرى فى رثاء الزهراء :

تركوا عهد أحمد فى أخيه وأذاقوا البتول ما أشجاها
وهى العروة التى ليس ينجو غير مستعصم بحبل ولاها

المراجع

١ – القرآن الكريم
٢ – تفسير محمد بن على بن محمد الشوكاني
٣ – تفاسير القرطبى وابن كثير والنسفى والبيضاوى
٤ – أعيان الشيعة : السيد محسن الأمين .
٥ – نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار : الشيخ سيد الشبلنجى .
٦ – الشرف المؤبد لآل محمد : يوسف النبهاني .
٧ – الزهراء : للأستاذ عبد الزهراء عثمان محمد .
٨ – فدك فى التاريخ : السيد محمد باقر الصدر .
٩ – فاطمة الزهراء : فاضل الحسيني الميلاني .
١٠– فاطمة الزهراء : سليمان كناني .
١١– السيدة فاطمة الزهراء : للأستاذ أحمد فهمى محمد .
١٢– السيدة فاطمة الزهراء : الأستاذ عمر أبو النصر .
١٣– خديجة الكبرى : الأستاذ حسن كامل الملطاوى .
١٤– خديجة أم المؤمنين : الأستاذ عبد الحميد الزهراوى .
١٥– ينابيع المودة : الشيخ سليمان الحسينى البلخى .
١٦– بنات النبى عليه الصلاة والسلام : الدكتورة بنت الشاطئ .
١٧– الفتنة الكبرى : الدكتور طه حسين .
١٨– فاطمة وبنات محمد : لامنس .

obeikandl.com

١٩- فاطمة الزهراء والفاطميون : الأستاذ عباس محمود العقاد .
٢٠- الإجماع فى التشريع الإسلامى : السيد محمد صادق الصدر .
٢١- طبقات ابن سعد : ابن سعد .
٢٢- المجالس السنية فى مناقب ومصائب العترة النبوية : السيد محسن الأمين الحسينى العاملى .
٢٣- حياة أمير المؤمنين فى عهد النبى للأستاذ محمد صادق الصدر .
٢٤- كفاية الطالب لأبى عبد الله محمد بن يوسف الكنجى الشافعى .
٢٥- شرح ابن أبى الحديد الجزء الأول .
٢٦- سيرة ابن هشام .
٢٧- الإصابة فى تمييز الصحابة لشهاب الدين أبى الفضل .
٢٨- الرياض النضرة لشيخ الشافعية محب الدين الطبرى .
٢٩- النص والاجتهاد للإمام المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين .

obeikandl.com

فهرس

الصفحة

تقديم ٧
مقدمة ١٥
أهل البيت ١٩
السيدة فاطمة الزهراء : ٣٣
أصهار الرسول ٥٤
سيدة النساء ٥٧
مولدها ٦١
نشأتها ٦٣
السيدة فاطمة تشبه الرسول ٦٥
السيدة فاطمة من أهل البيت : ٦٩
حديث الثقلين ٧٣
خصائصها ومناقبها وفضائلها ٧٦
الرسول والسيدة الزهراء ٨٢
الرسول يضرب بفاطمة المثل ٨٥
زوجها ٨٦
السلالة الطاهرة : ٩٢
الزهراء سيدة نساء العالمين : ٩٩

obeikandl.com

الصفحة

روايتها الحديث ١٠١
هجرتها ١٠٥
مشاركة الزهراء فى الشئون العامة ١١١
أخلاقها ١١٤
زواج السيدة فاطمة ١٣٢
بلاغتها وفصاحتها ١٥٩
الزهراء وفلسفة الإسلام : ١٦٧
أولاً : الصلاة ١٦٨
ثانياً : الزكاة ١٧٠
ثالثاً : الصوم ١٧١
رابعاً : الحج ١٧١
خامساً : العدل ١٧٢
سادساً : وجوب طاعة أهل البيت . . . ١٧٣
سابعاً : الإمامة ١٧٣
ثامناً : الجهاد ١٧٤
تاسعاً : الصبر ١٧٤
عاشراً : الأمر بالمعروف ١٧٥
حادى عشر : النهى عن المنكر ١٧٥
ثانى عشر : صلة الأرحام ١٧٦
ثالث عشر : الوفاء بالنذر ١٧٧

obeikandl.com

الصفحة

رابع عشر : توفية المكاييل والموازين . . ١٧٧
خامس عشر : النهى عن شرب الخمر . . ١٧٧
سادس عشر : اجتناب القذف . . . ١٧٧
سابع عشر : حرمة الشرك ١٧٨
ثامن عشر : وبر الوالدين وقاية من السخط . ١٧٨
تاسع عشر : والقصاص حقناً للدماء . . ١٧٩
وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . . . ١٨٠
السيدة فاطمة والخلافة وميراث الرسول . . ١٨٥
مرضها ٢٠٠
منامها قبل وفاتها ٢٠٣
وصيتها ٢٠٨
حزن الإمام على وفاتها ٢١١
ما أثر عنها من الدعاء ٢١٣
الشعراء والزهراء ٢١٥
المراجع ٢١٩

openkandil.com

رقم الإيداع	٢٠٠٤/٢٠٥٧٩
الترقيم الدولى ISBN	977-02-6752-X

١/٢٠٠٤/٦٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

obeikandl.com